لجنة التأليف والترجمة والنشر

مجموع رسائل الجاحظ

وهى رسائل لم تنشر

لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

نشرها

محمد طه الحاجرى   باول كراوس

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٣

لجنة التأليف والترجمة والنشر

مجموع رسائل الجاحظ

وهي رسائل لم تنشر

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

نشرها

باول كراوس   محمد طه الحاجري

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٣

مقدمة

هذه هى الطائفة الأولى من رسائل الجاحظ التى لم تنشر واعتزمنا نشرها ، مما أبقت عليه الأحداث المختلفة التى منيت بها آثار كاتبنا العظيم . وما زال الجاحظ — وقد مضى عليه أحد عشر قرناً — فى طليعة أدباء العربية ، وأول المثل التى يتطلع إليها كتابها وطلاب البيان فيها ، كما لا يزال من أصدق المصورين للنزعات الإنسانية ، وأبرع المستشفين لخفايا النفوس وحنايا الضمائر وحركات القلوب ، ثم هو مع هذا من أقدر الكتاب على عرض التيارات العقلية المختلفة فى عصره ، فلا جرم أخذت العناية بنشر آثاره تتجه فى هذا العصر اتجاها صادقا دائبا مصمما . وقد أردنا بنشر هذا المجموع أن نأخذ بنصيبنا من هذه العناية ، وأن نساهم — قدر الطاقة — فى إحياء ما كاد يدرس ويمحى من هذه الآثار ، وتجديد ما كاد يطمس وينبهم من قسمات ذلك الكاتب

وقد اخترنا أن نجلو فى هذا المجموع الرسائل المفردة . وعندنا أن هذه الرسائل — على قصر الكثير منها — أبلغ فى الدلالة على صاحبها من الكتب المطولة ، إذ كانت بطبيعتها معينة الموضوع محدودة الغرض . لا تأذن لعادة الاستطراد أن تداخلها وتشتت عناصرها . فكل رسالة منها وحدة قائمة بذاتها ، قد توفر الكاتب عليها ، ووجه فنه إلى غايتها ، فمضى فيها نشيطا موفور القوة ، لا تأخذ طبعه فترة يضعف فيها ، فيتكلف ويتصنع ، ولا ينداله ملل يرهقه ويقف به ، فيلتمس ما يبعث نشاطه ، فيغير سبيله ، ويحور منهجه

وهذه الطائفة الأولى التى يضمها هذا الجزء تتألف من أربع رسائل :

المعاد والمعاش ، وكتمان السر وحفظ اللسان ، والجد والهزل ، والحسد والعداوة . وكل منها يمثل ناحية من نواحي الجاحظ الفنية ، كما أنها من خير ما يعين على تصور حياته الظاهرة والباطنة . ولسنا الآن بصدد تحليل هذه الرسائل و بيان عناصرها ودلالاتها المختلفة ، فذلك أمر لا تتسع له هذه المقدمة ، وإنما نكتفى هنا بالإشارة إلى هـذا الوجه من أوجه خطورتها ، إلى جانب ما يجده القارئ فيها من جمال فنى خالص ، ومتاع روحى كبير

المصادر

اعتمدنا فى نشر هذه الرسائل على المصادر المخطوطة الآتى ذكرها :

(ن) نسخة مكتبة داماد إبراهيم باشا رقم ٩٤٩ ، وتوجـد صورتها الفتوغرافية فى مكتبة الجامعة المصرية . وهذه المخطوطة تحتوى على ٢١٩ ورقة فى حجم الثمن العادى ، وفى كل صفحة منها تقريبا ٢٣ سطراً . بخط نسخى أشبه بخط القرن الثامن . وهى لا تحمل أى إشارة تدل على تاريخ نسخها ، وكل ما عليها هو خاتم وقف داماد إبراهيم باشا لها ، وقد وصف فى هذا الخاتم بأنه وزير السلطان الغازى أحمد خان (١٠١٢ — ١٠٢٦) ، وهذه هى الرسائل التى تحتوى عليها :

(١) كتاب فضائل الأتراك (ورقة ١ وما يليها)

(٢) رسالة كتبها إلى محمد بن عبـد الملك فى الأخلاق المحمودة والمذمومة (ورقة ٢١) ، وهى الرسالة الأولى فى هذا المجموع

(٣) كتاب كتمان السر وحفظ اللسان (ورقة ٣٥) ، وهى الرسالة الثالثة فى هذا المجموع

(٤) رسالة المعاد والمعاش فى الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد (ورقة ٤٧) وهى رواية ثانية مستقلة لرسالة الأخلاق المحمودة المذمومة التى سبق ذكرها

(٥) كتاب فخر السودان على البيضان (ورقة ٦٠)

(٦) رسالة فى الجد والهزل إلى محمد بن عبد الملك الزيات (ورقة ٧٤) ، وهى الرسالة الثانية فى هذا المجموع

(٧) رسالة فى نفى التشبيه إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد (ورقة ٨٨)

(٨) رسالة إلى أبى عبد الله أحمد بن أبى دؤاد الايادى يخبره فيه بكتاب الفتيا (ورقة ٩٦)

(٩) رسالة إلى أبى الفرج ابن نجاح الكاتب (ورقة ٩٩)

(١٠) رسالة فصل ما بين العداوة والحسد (ورقة ١٠١) ، وهى الرسالة الرابعة فى هذا المجموع

(١١) رسالة فى ذم القواد (ورقة ١١٣)

(١٢) رسالة فى النابتة إلى أبى الوليد محمد بن أحمد أبى دؤاد (ورقة ١٢٠)

(١٣) كتاب الحجاب (ورقة ١٢٦)

(١٤) كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان (ورقة ١٤٤)

(١٥) كتاب القيان (ورقة ١٥٨)

(١٦) كتاب ذم أخلاق الكتاب (ورقة ١٧١)

(١٧) كتاب القول فى البغال (ورقة ١٧٨)

(١٨) رسالة فى الحنين إلى الأوطان (ورقة ٢١٢ إلى ٢١٩)

وفى كتاب مخطوطات الموصل للدكتور داود الچلبى (مطبعة الفرات ببغداد سنة ١٣٤٦ — ١٩٢٧ ص ٢٦٤) ذكر لمجموعة من رسائل الجاحظ كانت محفوظة فى مكتبة أمين بك ابن أيوب بك الجليلى ، وهى شبيهة بمجموعة داماد التى فى أيدينا ، إذ تحتوى على نفس الرسائل بنفس الترتيب . إلا أن فى أولها (أى قبل كتاب فضائل الأتراك) قطعة عنوانها : « حكاية عثمان الخياط فى اللصوص ووصاياهم » ، ولعلها مأخوذة من كتاب الحيوان (٢ : ١٣٣ ط الساسى) أو هى منتخبة من كتاب اللصوص للجاحظ الذى لم يعثر عليه بعد ، ولا ريب أنه كان لهذه المجموعة شأن كبير فى تصحيح الرسائل الواردة فى مجموعة داماد ، وقد اتجهنا إلى الدكتور داود الچلبى لسؤاله عنها فكتب إلينا بأن مكتبة الحاج أمين الجليلى قد تشتتت بعد وفاة صاحبها ، وأنه افتقد هذه المجموعة ولكنه لم يهتد أخيراً إليها . ونحن نأسف أشد الأسف لعدم تمكننا من الاستفادة منها ، وإن كنا لا نزال نرجو أن يعثر عليها ويستفاد منها فى تصحيح هذه الرسائل

(٣) مجموعة عنوانها : مختارات فصول الجاحظ محفوظة فى مكتبة المتحف البريطانى برقم ١١٢٩ ملحق (Suppl.) ، وتوجد صورتها الفتوغرافية فى مكتبة الجامعة المصرية . وهذه المخطوطة تحتوى على ٢٩٩ ورقة . وهى مكتوبة بخط نسخى حديث ، وفى آخرها : « انتهاء الفصول التى اختارها عبد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة المبارك الثامن عشر من شهر صفر الخير من شهور سنة أربع وتسعين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية على يد كاتبها الفقير عبد الله المنصورى ، اللهم اغفر له

ولوالديه أمين أمين أمين » . وقد كتبت النسخة « برسم خزانة الأمير الفاضل موسيو كريمر (A. v. Kremer) النمساوى بمحروسة مصر سنة ۱۸۷۷ » كما يقرأ على صفحتها الأولى

وهذه المجموعة تحتوى على فصول مختارة من الرسائل الآتية :

(١) من كتاب الحاسد والمحسود (ورقة ١ وما يليها)

(٢) من كتابه فى المعلمين (ورقة ٨)

(٣) من كتاب التربيع والتدوير (ورقة ١٩)

(٤) من رسالته إلى الحسن بن وهب فى مدح النبيذ وصفة أصحابه (ورقة ٤١)

(٥) من كتابه فى طبقات المغنين (ورقة ٤٩)

(٦) من كتابه فى البناء (ورقة ٥٢)

(٧) من رسالته إلى الفتح ابن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة (ورقة ٦٢)

(٨) من كتابه فى حجج النبوة (ورقة ٨٨)

(٩) من كتابه فى خلق القرآن (ورقة ١٢١)

(١٠) من كتابه فى الرد على النصارى (ورقة ١٢٩)

(١١) من كتابه فى مقالة العثمانية (ورقة ١٦١)

(١٢) من كتاب المسائل والجوابات فى المعرفة (ورقة ١٧٥)

(١٣) من كتابه فى المعاد والمعاش (ورقة ١٨٥)

(١٤) من رسالته إلى محمد بن عبد الملك فى الجد والهزل (ورقة ١٩١)

(١٥) من كتابه فى الوكلاء (ورقة ١٩٤)

(١٦) من كتابه فى الأوطان والبلدان (ورقة ١٩٩)

(١٧) من رسالته فى البلاغة والايجاز (ورقة ٢١٩)

(١٨) من كتابه فى تفضيل البطن على الظهر (ورقة ٢٢٠)

(١٩) فى كتابه فى النبل والتنبل وذم الكبر (ورقة ٢٢٧)

(٢٠) من رسالته إلى أبى الفرج الكاتب فى المودة والخلطة (ورقة ٢٣٨)

(٢١) من كتابه فى استحقاق الأمانة (ورقة ٢٤٠)

(٢٢) من رسالته فى استنجاز الوعد (ورقة ٢٥٠)

(٢٣) من رسالته فى تفضيل النطق على الصمت (ورقة ٢٥٤)

(٢٤) من كتابه فى فضيلة الكلام (ورقة ٢٦٠)

(٢٥) من رسالته فى مدح التجار وذم عمل السلطان (ورقة ٢٦٥)

(٢٦) من كتابه فى الشارب والمشروب (ورقة ٢٦٨)

(٢٧) من كتابه فى الجوابات فى الإمامة (ورقة ٢٧٨)

(٢٨) من كتابه فى مقالة الزيدية والرافضة (ورقة ٢٩١ إلى ٢٩٩)

وتوجد من هذه المجموعة نسخة أخرى مطابقة لها فى الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية

(ب) كتاب المختار من كلام أبى عثمان الجاحظ وهو محفوظ بمكتبة برلين برقم ٥٠٣١ ، وهو فى حجم المثمن الصغير فى ١٤٣ ورقة مكتوب بخط نسخى حديث ، وتاريخ نسخه ٤ شعبان المكرم سنة ١٠٦٠ ، واسم كاتبه الجم (؟) محمد (محمد الجم) المقرى (أو المصرى)

وهذه المجموعة تحتوى على مختارات مختلفة من كلام الجاحظ ، ولكن لم يشر فيها إلى عناوين الرسائل التى اختيرت منها ، ومنها ما لا يزال مجهول النسبة

إلى ما اختيرت منه من رسائل الجاحظ . وكأن هذه المختارات لم يعن فيها بإعطاء صورة من رسائل الجاحظ ، و إنما عنيت بإعطاء بعض النماذج البليغة من كلامه ، حتى إنها تقتصر فى بعض الأحيان على جمل مفردة . ومع هذا فقد كانت قيمتها كبيرة فى تصحيح كثير من المواضع وفى تكملة بعض ما سقط من عبارات الجاحظ فى سائر مصادرنا .

ولم يكن حظ رسائل هذا المجموع واحدا فى مصادرها التى اعتمدنا عليها فى نشرها فبينما توفرت للرسالة الأولى أربع مصادر لم تظفر الرسالة الأخيرة إلا بمصدر واحد ، وتوسطت الثانية والثالثة بين الطرفين .

والرسالة الأولى ترد فى نسخة داماد مرتين بعنوانين مختلفين ، وروايتين مختلفتين أيضا . أما الرواية الأولى فعنوانها : « الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة إلى محمد بن عبد الملك » ، وقد رمزنا لهذه الرواية بالرمز ه كسائر ما جاء فى نسخة داماد . وأما الرواية الثانية فعنوانها : « رسالة المعاد والمعاش إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد » ، وقد أشرنا إليها بالرمز د .

وترد سبعة فصول مختارة من هذه الرسالة فى مجموعة المتحف البريطانى التى أشرنا إليها بالرمز م ، كما ترد قطعة واحدة من أولها فى مخطوطة برلين التى أشرنا إليها بالرمز ب .

وأما الرسالة الثانية وهى رسالة كتمان السر وحفظ اللسان فقد وردت بتمامها فى ه ، وتوجد قطعة صغيرة من أولها فى ب .

والرسالة الثالثة وهى رسالة الجد والهزل مصدرها الأصلى نسخة ه ، وقد ساعدت فى تصحيحها المختارات الواردة فى م و ب .

وأما الرسالة الرابعة فلم ترد إلا فى نسخة ه كما قلنا .

وبعد فهذه هى مصادرنا المباشرة التى رجعنا إليها واعتمدنا عليها فى نشر هـذه الرسائل ، وقد اتخذنا من نسخة ت المصدر الأول لنا ، وقد تحرينا قدر ما مكن لنا التأمل والمقارنة أن نظفر بالنص الصحيح لعبارة الجاحظ ، بالرغم مما اعتور هذه المخطوطات من تحريف وتشويه وخلط ونقص ، وبالرغم من أننا فى كثير من المواضع لم نظفر بأكثر من أصل واحد وقراءة واحدة ظاهرة الفساد

ومع ذلك بقيت فى هذه الرسائل مواضع على فسادها ونقصها لم نوفق إلى تصحيحها ، ولم نجد العون على إقامة عوجها فى أصل آخر أو قراءة أخرى . ولكننا آثرنا أن تظهر هـذه الرسائل على ما فيها ، مما فات طوقنا ، فذلك خير من أن تظل حبيسة مقيـدة . وما يزال أملنا كبيراً فى أن يُتاح لنا من الوسائل ما يمهـد لنا السبيل إلى تصحيحها ، أو أن نجد من نقد الناقدين ما عسى أن يجلو هذه المواضع المغشاة فيها

وأخيراً بقيت لنا كلمة صغيرة فى المنهج الذى أخذنا أنفسنا به فى نشر هذه الرسائل فسيجد القارئ فى هذه النشرة شيئاً لم يألفه ، وهو خلو الصفحات من الأرقام الكثيرة التى تشير إلى القراءات المختلفة ، وهى كثيراً ما تشتت خاطره فى متابعة القراءة فاكتفينا بالإشارة إلى الأسطر مع وضع نجمة صغيرة هكذا * قبل الكلمات التى يعلق فى الهامش عليها . وكذلك اقتصدنا فى عبارات التعليق معرضين عن الكلمات الكثيرة التى تعتبر نوعا من الفضول والتى ترد كثيراً فى النشرات العربية ، فوضعنا الرمز المشير إلى المخطوطة بعد الكلمة المشار إليها . فإذا وجدت —مثلا— فى هامش الصفحة الثانية العبارة الآتية : « (٣) والعالم والجاهل م » كان معنى هذا أن العبارة المذكورة هى قراءة نسخة م فى مقابل

« والعالمون والجاهلون » الواردة فى السطر الثانى من تلك الصفحة والمشار إليها بنجمة ، وهى قراءة نسخة الأصل هـ وهكذا .

وكذلك اصطلحنا على استعمال نوعين من الإشارات دلالة على النقص والزيادة وهما قوسان مربعان [ ] علامة على النقص ، وقوسان مثلثان < > علامة على الزيادة . فإذا وجدت — مثلا — فى هامش الصفحة الثانية الإشارة : « (٧) [كلها] م » كان معنى هذا أن الكلمة « كلها » الواردة فى السطر السابع والمعلم عليها بنجمة ، وهى قراءة نسخة الأصل هـ ، محذوفة فى نسخة م . وإذا وجدت ، بعد هذا التعليق التعليق الآتى : « < تكاد > م ب » فمعنى ذلك أن كلمة « تكاد » ناقصة فى الأصل هـ وأنها مأخوذة من الروايتين الأخريين م ، ب .

أما العبارة الواردة فى ص ٦١ : « (١٠) م : [ ] هـ » فمعناها أن الكلمة « نعم » وضعت فى المتن عن نسخة م وإن كانت محذوفة فى نسخة هـ . وكذلك العبارة الواردة فى ص ٦٣ : « (١٠) < ... > ب : سهمك فى صدك هـ » معناها أن الكلمات الواردة فى المتن فى السطر العاشر بين هاتين العلامتين مأخوذة من نسخة ب ، ناقصة فى نسخة هـ

وكذلك استعملنا هاتين العلامتين « < > » فى ص ٥٠ : ١٢ ، مثلا ، إشارة إلى ما سقط فى الأصل واقترحنا إضافته

١

رسالة المعاد والمعاش

فى الأدب وتدبير الناس ومُعاملاتِهم

كتب بها الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد

بسم الله الرحمن الرحيم

حَفِظَكَ الله وأبقاكَ وأمتعَ بكَ . (*) إنّ جماعاتِ أهلِ الحِكمة قالوا : واجبٌ على كلّ حكيمٍ أن يُحسِنَ الارتيادَ لِموضعِ البُغية وأن يتبيّنَ أسبابَ الأمور ويمهِّدَ لعواقبها . فإنّما حُمدت العلماءُ بحُسنِ التثبُّت فى أوائل الأُمور واستشفافِهم بعقولهم ما تجىءُ به العواقبُ ، فيَعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالاتُ فى استدبارها ، وبقَدرِ تفاوُتهم فى ذلك تَستبين فضائلُهم . فأمّا معرفةُ الأمور

(١ - ٣) رسالة المعاد . . . أبي دؤاد ى (وتدبّر ا) ، وكذلك مخطوطة الموصل (< و > فى الأدب ا) : رسالة إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عفى الله عنه ى (ورقة ٢١ فى عنوان الرسالة) ، رسالة أبي عثمان عمرو بن بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق المحمودة والمذمومة ى (ورقة ٢١ *) ، من صدر كتابه فى المعادوالمعاش م ، (لا عنوان فى ب) . راجع إرشاد الأريب لياقوت ج ٦ ، ص ٧٧ : ٢ : « كتاب المعاد والمعاش » — (٥) الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى جميع المرسلين ، أما بعد فان جماعات ى ، أما بعد فان جماعات م — (٦) وأن يبين ى — (٧) واستمرافهم ى

(*) ابتداء رواية م (١)

عند تكشّفها وما يَظهر مِن خَفيّاتها ، *فذلك أمرٌ يَعتدل فيه الفاضلُ والمفضول *والعالمون والجاهلون

(*) وإنّى عرفتُك — *أكرمك الله — فى أيّام الحَداثة وحيث سلطانُ اللّهو *المُخلِق للأعراض أغلبُ على نُظَرائك وسُكرُ الشباب والجِدَة المتحيِّفَين للدِّين والمُروءةِ *مستولٍ على لِدَاتك ، فاُختُبرتَ أنت وَهُم بِبَسطة المقدُرة وحُمَيّا الحَداثة *وطولِ الجِدَة ، مع ما تقدّمتَهم فيه مِن الوَسامة فى الصورة والجمالِ فى الهيئة . وهذه *كلّها أسبابٌ* <تكاد> توجب الانقيادَ لِلهَوَى *ولُجَجٌ مِن المهالك لا يَسلَمُ منها إلّا المنقطعُ القرينِ فى صحّة الفِطرة وكمالِ العقل . فاستعبدَتهم الشهواتُ حتى أعطوها أزِمّةَ أديانهم وسلّطوها على مُروءاتهم وأباحوها أعراضهم ، *فآلت بأكثرِهم* الحالُ إلى ذُلّ العُدم وفَقْدِ عزّ الغِنَى فى العاجل مع النَدامةِ الطويلة *والحسرةِ فى الآجل

وخرجتَ نسيجَ وَحدِك *أوحديًّا فى عصرك ، حَكّمتَ وكيلَ الله عندك — وهو عقلك — على هواك وألقيتَ إليه أزِمّةَ أمرك ، فسَلَكَ بك *طريقَ السَلامة وأسلمَك إلى العاقبة المحمودة ، و بلغ بك من نيل *اللذّات أكثرَ* ممّا بلغوا *ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا* وصرّفك مِن *صنوف

(١) فذاك ق — (٢) والعالم والجاهل م — (٣) [وإنى] قد عرفتك ب — [أكرمك الله] ب — (٤) المخلّق للأعراض د — (٥) استولى ب — (٦) وفضل الجدة م — (٧) [كلها] م — < تكاد > م ب — (٧-٨) وتلجج فى المهالك <و> لا يسلم م ، ولجج المهالك <التى> لا يسلم ب — (١٠) فآلت بهم ب — (١١) [والحسرة] فى الأجل د — (١٢) أوحديا فى نفسك ق م — (١٤) طريق م ب : طرق ق ، سبيل د — اللذات <إلى أكرمها و> أكثر ب — (١٥) [ونال... نالوا] ب — (١٥) صنوف التنعم ق ، صنوف الشهوات ب

(*) ابتداء رواية ب

النعمَ فى أ كثرَ مما *تصرّفوا ، ورَبطَ عليك مِن نعمَ الله التى خوّلك ما أطلقه مِن أيديهم *إيثارُ اللهوِ وتسليطُهم الهـوى *على أنفسهم ، *نخاض بك تلك اللُجَج واستنقذَك من تلك المعاطب ، فأخرجك سليمَ الدين وافرَ المروءة نقى العِرض *كثيرَ البرِّ آمِنَ الجِدَة . وذلك سبيلُ مَن كان مَيلُه إلى الله أ كثرَ من ميله إلى هواه

*ولم أزَل فى أحوالك تلك كلِّها بفضيلتك عارفاً ولك *بنِعَم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهرَ أمورك *المحمودةِ *فتدعونى إلى الانقطاع إليك وأسأل عن بواطن أحوالك فتَزيدُنى رغبةً فى الاتّصال بك ، *أرتياداً مِنِّى لموضع الخِيَرَة فى الأُخوّة ، والتماساً لإصابةِ *الاصطفاء فى المودّة وتخيُّرًا لمستودَعِ الرجاء فى النائبة . فلمّا مَحَضَتك الخِبرةُ *وكَشَفَك الابتلاء عن المَحمَدة *وقضَت لك التجاربُ بالتقدِمة وشَهِدَت لك قلوبُ العامّة بالقبول والمحبّة وقَطَعَ الله عُذرَ *كلِّ مَن كان يطلبُ الاتّصالَ بك ، *طلبتُ الوسيلةَ إليك والاتّصال بحَبلك ، فمَتَتُّ بحُرمة الأدب وذِمام كَرَمِك . *وكان مِن نعمة الله عندى أن جعل *أبا عبد الله — *حَفِظه الله — وسيلتى إليك ، فوجدتُ المطلبَ سهلاً *والمَرادَ محموداً ، وأفضَيتُ إلى ما يجوز الأُمنية *ويفوت الأملَ . فوصلتَ *إخائى بمودّتك وخلطتَنى

---

(١) تصرفوا < فيه > ى (٢) إيثار الهوى ى ، < من > إيثار اللهو م — [على أنفسهم] ق م ب — نخاض بهم < سبل > تلك ى ، نخاض بهم تلك ب — (٤) كثيرالبر آمن الجدة ، صححنا : كثيرالبر من الجدة م ، كثير الثراء من الجدة ق ، كثير الثراء من الحال ب ، كثير الثراء ى — (٦) فلم أزل ق م ، فلم أزل < أبقاك الله > ب — بنعمة ب — (٧) المحمودة < فيك > ى — تدعونى ى م — (٨) < و > ارتيادا ى — (٩) الاصطفاء : المصطفى ب — وكشف الابتلاء م — (١٠) وقضت لنا ب — (١١) [كل] ب — (١٢) طلبنا الوسيلة لك ب — (١٣) فـكان ب — أبا فلان ب — (١٤) [حفظه الله] ى م — والمرام ب — (١٥) بفوت الأمل ق — إخائى : رجائى ى

بنفسك وأسمتنى *فى مَراعِى ذَوِى الخاصّة بك ، تفضّلاً لا مجازاةً *وتطوّلاً لا مكافأةً . فأمِنتُ الخطوبَ وأعتليتُ على الزّمان ، وأتّخذتُك للأحداث عُدّةً ، ومِن نوائب الدّهر حِصناً مَنيعاً . فلمّا حُزتُ المؤانسـةَ ، وتقلّبتُ مِن فضلك فى صُنوف النِعمة ، *وزاد بَصَرِى مِن مواهبك *فى السرور والحَبرة . أردتُ خِبرة المشاهدة فبَلَوتُ *أخلاقَك ، وأمتحنتُ شِيَمك ، وعجمتُ مذاهبك على حين غَفَلاتك وفى الأوقات التى يَقِلّ فيها تحفُّظك ، *أراعِى حركاتِك وأراقِب مخارجَ أمرك* ونهيك ، فأرى *< مِن > استصغارك لِعظيم *النِعمة التى تُنعِمُ بها وأستكثارِك لِقليل الشُكر مِن شاكريك ، *< ما > أعرفُ < به > — *عما قد بَلَوتُ من غيرك وما قد شَهِدَت *لى به التجاربُ — أنّ ذلك *مِنك طَبعٌ *غيرُ تكلّفٍ . هَيهاتَ ما يكاد ذو التكلّف أن يَخفَى *على الغُباة فكيف على مِثلى مِن المتصفحين(*) . فزادتنى المؤانسةُ فيك رَغبةً وطُولُ العِشرة لك محبّةً ، وأمتحانى أفاعيلَك لك تفضيلاً وبطاعتك دَينونةً . *وكان تمام شُكرى لربِّى ولىِّ *كلّ نعمةٍ والمبتدئ بكلّ *إحسانٍ ، الشُكر لك* . والقيام بمكافأتك بما أمكن من قولٍ *وفعـل . لأنّ *الله تبارك وتعالى نَظَم الشكر له بالشكر *لِذِى النِعمة مِن خَلقه ، وأبَى أن يَقبلهما إلّا معاً ، لأنّ أحدهما دليلٌ*

(١) فى دواعى الخاصة بك ب — (١-٢) وتكرما ى — (٤) وزاد تصرفى فى مواهبك م — فى مذاهبك ب — (٥) [أخلاقك] ى — (٦-٧) أراقب حركاتك وأراعى مخارج أمرك ب — (٧) < من > ب : [ ] ه ى م — النعم ه — (٨-٩) < ما > أعرف < به > ب : أعرف ه ى م — عما : ما ب — (٩) [لى] ى — (١٠) منك عن غير تكليف ب — (١٠-١١) على أهل الغباوة م — (١٢-١٣) وكان < من > تمام لذتى < أن سألت الله > ولى كل نعمة والمبتدىء بكل إحسان < العون على > الشكر لك ى — (١٤) وعمل ى — الله سبحانه ب — (١٥) لذوى النعم ب

(*) اهـ رواية م (١)

على الآخر وموصولٌ به . فمَن ضيَّع شُكرَ ذِي نِعمةٍ مِن الخَلق فأمرَ الله ضيَّع وبشهادته استخفّ . ولقد جاء بذلك الخبرُ عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلّم فقال : مَن لم يَشكُر للناس لم يَشكُر لله . ولعَمرى إنّ ذلك لَموجودٌ فى الفِطرة قائم فى العقل ، أنّ مَن كفر نِعَمَ الخَلق كان لِنِعَم الله أكفر . لأنّ الخَلق يُعطِى بعضُهم بعضاً بالكُلفة والمشقّة وثِقَل العطيّة على القلوب ، والله يُعطِى بلا كُلفة . ولهذه العِلّة جمَع بين الشُّكر له والشكر لِذَوِى النِعَم مِن خَلقه

فلمّا وجبَت علىّ الحُجّةُ لشُكرك وقُطِعَ عُذرِى فى مكافأتك ، اعترفتُ بالتقصير عن تقصّى ذلك . إلّا أنّى بسطتُ لسانى بتقريظك ونَشرِ محاسنِك ، موصولٌ ذلك عندى لآذانِ السامعين بالاعتراف بالعَجز عن إحصائها . وقد رُوِى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن أُودِعَ عُرفاً فليَشكُره ، فإن لم يُمكِنه فلينشُره ، فإذا نَشَرَه فقد شَكَرَه وإذا كتَمَه فقد كفَرَه »(*)

ثم قد رأيتُ أن قد بقِىَ علىّ أمرٌ مِن الأمور يمكننى فيه بِرُّك هو عندى عَتيدٌ وأنت عنه غير مستغنٍ والمنفعةُ لك فيه عظيمة عاجلةً وآجلةً ، إن شاء الله

(**) ولم أزل — أبقاك الله — بالموضع الذى قد علمتَ مِن جَمعِ الكُتُب

(١) [و] موصول ب — (٢) وبشاهده ى — [و] لقد ب — (٢-٣) الصادق عليه السلام ى — فقال <صلى الله عليه وسلم> هـ ، [فقال] ب — من لم يشكر الناس لم يشكر الله ب — (٦) بلا كلفة <ولا مشقة> ى — (٨) [على] ب — لشكرك ب : بشكرك هـ ، فى شكرك ى — وقطع ذكرى ب — (١٠) ذلك عندي لآذان السامعين ب : ذلك عندي عند السامعين هـ ، ذلك مني عند السامعين ى — (١١) عن النبي ... وسلم ب — (١٣) ثم [قد] رأيت هـ — <و> هو عندي ى — (١٥) [إن شاء الله] هـ

(*) اهـ رواية ب (**) ابتداء رواية م (٢)

ودِراستِها والنظرِ فيها ، ومعلومٌ أنّ طُول دراستها إنما هو تصفُّح عقولِ العالمين والعلمُ بأخلاق النبيّين وذَوِى الحكمة من الماضين والباقين ، مِن جميع الأُمَم وكُتُبِ أهل المِلَل . فرأيتُ أن أجمع لك كتاباً مِن الأدب جامعاً لِعلمٍ كثيرٍ مِن المعاد والمعاش ، أَصِفُ لك فيه عِلَلَ الأشياء وأُخبِرك بأسبابها وما اتّفقَتْ عليه محاسنُ الأمم . وعلمتُ أنّ ذلك مِن أعظمِ ما أَبَرّك به وأرجحِ ما أتقرّب به إليك . وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيتُ اللهَ قَسَم لك مِن العقل والفهم وركّب فيك مِن الطبع الكريم . وقد أجمعت الحكماء أنّ العقل المطبوع والكرم الغريزىّ لا يبلُغان غايةَ الكمال إلّا بمعاونة العقل المكتسَب ، ومثّلوا ذلك بالنار والحطَب والمِصباح والدُهن . وذلك أنّ العقل الغريزىّ آلة والمكتسبَ مادّة ، وإنما الأدبُ عقلُ غيرِك تَزيده فى عقلك

ورأيتُ كثيراً من واضعى الآداب قَبلِى قد عهِدوا إلى الغابرين بعدَهم فى الآداب عهوداً قاربوا فيها الحقّ وأحسنوا فيها الدلالة . إلّا أنّى رأيتُ أكثرَ ما رسموا مِن ذلك فروعاً لم يبيّنوا عِلَلها وصفاتٍ حسنةً لم يكشِفوا أسبابَها وأموراً محمودةً لم يدُلّوا على أصولها . فإن كان ما فعلوا من ذلك رواياتٍ رَوَوها عن أسلافهم ووِراثاتٍ وَرِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةَ مَن يَستنبط . وإن كانوا تركوا الدَلالة على أعيان الأمور التى بمعرفة

(٢) النبيين < صلوات الله عليهم أجمعين > م — (٤) من < أمر > المعاد م — (٥) ما أبرك به ڽ : ما أترك به م ، ما أسرك به ى — (٧) من الفهم والعقل ڽ — < على > أن العقل م — (١١) إلى الغابر ى — (١٢) قاربوا [فيها] ى — (١٤) ما فعلوه [من ذلك] ى — (١٤-١٥) [روايات رووها عن أسلافهم و] وراثات ڽ — (١٦) استنبط ڽ — على علل الأمور ڽ م — التى بمعرفة م : التى فى معرفة ڽ ، اللاتى على معرفة ى

عِلَلها يُوصَل إلى مباشَرة اليقين فيها ويُنتهَى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعدُوا فى ذلك منزلةَ الظنّ بها . *ولن تجد وصايا أنبياء الله *أبداً إلّا مبيَّنةَ الأسباب مكشوفةَ العلل مضروبةً معها الأمثال(*)

فألّفتُ لك كتابى هـذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطبائع *التى رُكِّب عليها الخَلق وفُطرت عليها *البرايا كلهم ، فهم *متساوون فيها وإلى وجودها فى أنفسهم مضطرّون وفى المعرفة بما يتولّد عنها متّفقون . ثم مُبيِّنٌ لك كيف *تفترق بهم الحالاتُ وتتفاوت بهم المنازلُ ، وما العللُ التى يوجب بعضُها بعضاً وما الشىء الذى يكون سبباً لغيره متى كان الأوّل كان ما بعده ، وما السببُ الذى لا يكون الثانى فيه إلّا بالأوّل وربما كان الأوّل ولم يكن الثانى ، *وفرقَ ما بين الطبع الأوّل وبين الاكتساب والعادة* التى تصير طبعاً ثانياً ، ولِمَ اختلف ذلك وكيف دواعى قلوبِ الناس وما منها يمتنعون منه وما منها لا يمتنعون منه وما أسبابُ نوازعِ شهواتِهم ، وما الشىء الذى يُحتال *لقلوبهم به حتى تُستمال وحتى تؤنِس بعدَ الوَحشة وتَسكُنَ بعد النفار ، وكيف يُتأتّى لِيُنقَضَ ما فيهم من الطبائع المذمومة حتى تُصرَف إلى الشِيَم المحمودة . وراسِمٌ لك فى ذلك أصولاً ومُبيِّنٌ لك مع كل أصل منها عِلّتَه وسَبَبَه

وقد علمتَ أنّ فى كثيرٍ *مِن الحقّ مُشتبهاتٍ لا تُستبان إلّا بَعدَ *النظر والتأمُّل . وهناك *يَختِل الشيطانُ أهلَ الغَفلة ، *وذلك أنّه لا يجد سبيلاً إلى

(٢) ولن تجدوا ئ — [أبدا] ئ — (٤) اللائى ركب ى — (٥) البرايا كلها ى — فيها مستوون ى — (٧) تفرق ى — (١٠) وفرق ما بين الأول والثانى وما بين الاكتساب والعادة ى — (١٢) لقلوبهم به ، صححنا : لقلوبهم له ئ ، فيه لقلوبهم ى — (١٦) من الخلق ى — (١٦-١٧) النظر [والتأمل] ئ — (١٧) يخيل الشيطان ئ — وذاك ئ

(*) اهـ رواية م (٢)

اختداعهم عن *الأمر الظاهر .(*) *فلم أَدَع من تلك المواضع الخفيّة موضعاً إلّا أقمتُ *لك بإزاء * كلّ شُبهةٍ دليلاً ومع كلّ خفيٍّ مِن الحقّ حُجّةً ظاهرةً ، *تستنبط بها غوامض البرهان وتستبين بها *دقائق الصَّواب *وتستشفّ بها سرائر القلوب ، فتأتى ما تأتى عن بيّنةٍ وتَدَعُ ما تَدَع عن خِبرة ، ولا يكونُ بك وَحشة إلى معرفة كثير مما يَغيبُ عنك إذا عرفتَ العِللَ والأسباب ، حتى كأنك مشاهدٌ لِضمير كلّ امرئٍ ، لمعرفتك بطبعه وما رُكّب عليه(*) وعوارضِ الأمور *الداخلة عليه . ثم غيرُ رَاضٍ لك بالأصول حتى أتقصّى لك ما بلغه عِلمى من الفروع . ثم لا أرسِمَ لك من ذلك * < إلّا > الأمرَ *المعقول فى كلّ طبيعة والموجودَ فى فِطرة البرايا كلِّها . فإن أحسنتُ ذلك وأقمتُه على حدوده *ونزّلتُه منازلَه ، كان عُمرك — وإن قصُرت أيّامُه — طويلاً وفارقتَ ما لا بُدّ لك *من فِراقه محموداً ، إن شاء الله

وأعلم أنّ الآدابَ إنما هى آلاتٌ تَصلُح أن تُستعمل فى الدين وتُستعمل فى الدنيا ، وإنما وُضِعَت الآدابُ على أصول الطبائع ، وإنما أصول *أمور التدبير فى الدين والدنيا واحدة . فما فسدت فيه المعاملةُ فى الدين فسدت *فيه المعاملة فى الدنيا ، وكل أمرٍ لم يَصِحّ فى معاملات الدنيا لم يصحّ فى الدين

وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلافُ الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكمُ هاهنا الحكم هناك . ولولا ذلك ما قامت مملكةٌ ولا ثبتت

---

(١) الأمور الظاهرة ى — ولن أدع م — (٢) لك < بها > بازاء م — كل شبهة < منها > ى ، كل شبهة < منه > م — تستنبط لها ض ، يستنبط به م — (٣) دقائق ى — وتستشف بها م : وتستشفها ض ، ويستق بها ى — (٧) الداخلة فيه ى — (٨) [إلا] ض ى — المعقول : لعلها المعقود — (١٠) وانزلته على منازله ى — (١١) من مفارقته ى — (١٣) أمر التدبير ى — (١٤) فيه [المعاملة] فى الدنيا ى

(*-*) (١-٦) رواية م (٣)

دولة ولا استقامت سياسةٌ . ولذلك قال الله عزّ وجلّ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً . قال ابن عبّاس فى تفسيرها : مَن كان ليس له مِن العقل ما يَعرفُ به كيف دُبِّرت أمورُ الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنما ينتقلُ بذلك العقل ، فبقدرِ جهلِه فى الدنيا يكون جهلُه بالآخرة أكثرَ ، لأنّ هـذه شاهدةٌ وتلك غَيبٌ ، فإذا جَهِلَ ما شاهدَ فهو بما غاب عنه أجهل

فأوّلُ ما أُوصيك به ونفسى تقوى الله ، فإنه جماع كلّ خير وسببُ كلّ نجاة ولِقاح كل رُشد ، هى أحرزُ حِرز وأقوى مُعين وأمنعُ جُنّة ، هى الجامعة محبّةَ قلوبِ العباد والمستقبلةُ بك محبّةَ من لا تجرى عليهم نِعَمُك . فاجعلها عُدّتك وسِلاحك واجعل أمرَ الله ونهيه نُصب عينيك

وأُحذّرك ونفسى الله والاغترارَ به والإدهانَ فى أمره والاستهانة بعزائمه والأمن لِمَكره . فقـد رأيتَ آثاره فى أهل وَلايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين عِبرةً وللغابرين مثلاً

واعلم أنّ خَلْقه كلّهم بَرِيّتُه ، لا وُصلةَ بينه وبين أحدٍ منهم إلّا بالطاعة . فأولاهم به أكثرهم تزيُّدًا فى طاعته ، وما خالف هذا فإنّه أمانىُّ وغُرورٌ . وقد مكّن الله لك مِن أسباب المقدرة ومهد لك فى تمكين الغِنَى والبَسطة ما لم

(١) قال الله جل ذكره ى — (٥) فان جهل ى — (٩) قلوب محبة ص — والمستقبلة بك قلوب من ص — نعمتك ى — (١٠) عونك ى — (١١) [الله و] الاغترار به ى ، [به] ص — بعزمته ى — (١٢) أثره ى — (١٤) وصيله ى — (١٥) فقـد ى — (١٦) من ى

(١-٢) سورة الإسراء : ٧٢

*تُنحِلْهُ بحِيلةٍ *ولم تُلْقَّنهُ بقوّة ، لولا فضلُه وطَولُه . ولـكنّه مكّنك ليبلوَ خَبَرَكَ ويختبرَ شُـكرَكَ ويُحصِيَ سعيَك ويكتب أثَرَكَ ، ثم يُوفّيكَ أجرَكَ ويأخذَكَ بما اجترحَت *يدُكَ ، أو يعفوَ فأهلُ العَفوِ هُو . ولله ابتلاءان فى خَلقه — والابتلاءُ هو الاختبار — ابتلاء بنعمة وابتلاء بمصيبة . وبقدرِ عِظَمِها يجب التكليف *من الله عليها . فبقدرِ ما خوَّلك مِن النعمة يَستأدِيك الشُـكرَ . ولو تقصّى اللهُ على خَلقِه لعَذَّبهم . ولذلك *قال وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّٰهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ . ولـكنّه قَبِلَ التَوبة وأقال العَثرةَ وجَعَلَ بالحسَنَة أضعافَها

واعلم أنّ الحُـكمَ فى الآخرة هو الحـكمُ فى الدنيا ، ميزانٌ قِسط وحَـكَمٌ عَدلٌ . وقد قال اللهُ تعالى فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُه فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . وهـذا مَثَلٌ ضربه الله لأنّ الناس يعلمون أن لو وُضِع فى إحدى كِفّتَى الميزان شىء ولم *يَكُ فى الأخرى قليلٌ ولا كثير ، لم يكن للوزن معنًى يُعقل . وذلك أنّ أحدًا مِن الخلق لا يخلو مِن هَفوة أو زَلّة أو غفلة ، فأَخبر أنّ مَن كانت حَسَناتُه الراجحة على سَيِّئاته ، مع النَـدَم على السيّئات ، كان على سبيل النجاة وطريق الفوز بالإفلاح ، ومَن مالت سيئاتُه بحسَناته كان العَطَبُ والعذابُ أولى به . وكذلك حُـكمُهُ فى الدنيا ، لأنه *قد تولّى أولياءَ مِن خلقِه وشَهِدَ لهم بالعَداله . وقد عاتبهم فى بعض الأمور لِغَلَبة الصلاح *فى أفعالهم وإن هَفَوا وتبرّأ من آخرين

(١) تنله ء — ولم يلقنه ⵃ ، ولا بلغة ء — (٣) يداك ء — (٥) [من الله] ء —
(٦) قال <جل ذكره> ء — (١٢) يكن ء — (١٧) [قد] ء

(٦-٧) سورة فاطر ٤٥ (١٠-١١) سورة المؤمنون ١٠٣

وعاداهم لغلبة الجورُ على *أفاعيلهم وإن أحسنوا فى بعض الأمور . وكذلك جَرَت مُعامَلاتُ *الخلق بينهم ، يعدِّلون العادلَ *بالغالب مِن فعله وربما أساء ويفسِّقون الفاسق وربما أحسن . وإنما الأمورُ بعواقبها وإنما يُقضى على كلِّ امرئٍ* بما شاكل أحواله

فهذه الأمورُ قائمةٌ فى العقول جَرَت عليها المعاملة واستقامت بها السياسة لا اختلافَ بين الأمّة فيها . فلا *تَغبِنَنّ حَظَّك مِن دِينك . *وإن استطعتَ أن تَبلغ من الطاعة غاياتِها فلِنَفسِك تمهد ، وإلاّ فاجهد أن يكون أغلبَ *أفعالك عليك الطاعة مع الندامة عند الإساءة ويكونَ ميلُك *عند الإساءة إلى الله أكثرَ ، والله يوفِّقك

*اعلم أنّ الله جلّ ثناؤه خَلَقَ خَلقَه ثم طبعهم على *حُبِّ اجترارِ المنافع ودَفعِ المضارّ *وبُغضِ ما كان *بخلاف ذلك . هذا فيهم طَبعٌ مركَّب وجِبِلّةٌ مفطورة ، لاخلاف بين الخلق فيه موجودٌ فى الأنس والحيوان ، لم يَدَّعِ غيرَه مدَّعٍ مِن الأوّلين والآخِرين . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تَزيد المحبّةُ والبَغضاء *< . . . . . > كزيادته تميل الطبيعة *معها كَميل كَفَّتى الميزان *قلّ ذلك أو كثر

*وهاتان خَلّتان داخلٌ فيهما جميعُ محابِّ العباد ومكارهِهم . والنفسُ فى طَبعها حُبُّ الراحة والدَعَة والازديادِ والعُلُوِّ والعِزِّ والغَلَبةِ والاستطرافِ

---

(١) [فى أفعالهم ... لغلبة الجور] ت — أفعالهم ى — (٢) الناس ى — (٢-٤) [بالغالب ... كل امرى] ى — (٦) تعتبر ت — فان ى — (٨) أفاعيلك [عليك] ت — ميلك [عند الاساءة] ى — (١٠) <و> اعلم ى — [حب] اجترار ى — (١١) ونقض من كان ت — خلاف ى — (١٤) <...> : سقط فى ى ت كما يظهر — معه ى — كثر ذلك أو قل ى — (١٦) وهاتان جملتان ت

[1]والتنوّق وجميعِ ما تَستلِذّ الحواسُّ مِن المناظر الحسنة والروائح العَبِقة [2]والطعوم الطيّبة والأصواتِ المُونِقة والملامسِ اللذيذة ومما [3]كراهتُه فى طباعهم أضدادُ ما وصفتُ لك وخلافُه

فهذه الخلالُ التى يجمعها [4]خَلّتان غرائزُ فى الفِطَر وكوامِنُ فى الطبع ، جِبِلّة ثابتة وشِيمة مخلوقة . [5]على أنها فى بعضٍ أكثرُ منها فى بعض ، ولا يعلمُ [6]قدرَ القلّة فيه والكثرة إلّا الذى دبّرهم . فلما كانت هـذه طبائعَهم أنشأ لهم مِن الأرض أرزاقَهم وجعلَ فى ذلك ملاذَّ لجميع حواسّهم ، فتعلّقت [7]به قلوبُهم وتطلّعت إليه أنفُسهم . فلو تركهم وأصلَ الطبيعة — مع ما مكّن لهم من الأرزاق المشتهاة فى طبائعهم — صاروا إلى طاعة الهوى وذهب التعاطفُ والتبارُّ . وإذا ذهبا كان ذلك سببا للفساد وانقطاع التناسُل وفَناء الدنيا وأهلِها . لأنّ طبع النفس لايَسلسَ بعَطيّةِ قليلٍ ولا كثير مما حوته ، حتى تُعوَّض أكثرَ مما تُعطِى إمّا عاجلاً وإمّا آجلاً مما تَستلِذُّه حواسُّها

فعَلِمَ اللهُ أنهم لايتعاطفون ولا يتواصَلون [13]ولا ينقادون إلّا بالتأديب ، وأنّ التأديب ليس إلا بالأمر والنهى ، [14]وأن الأمرَ والنهى غيرُ ناجعَين فيهم إلّا بالترغيب والترهيب اللذين فى [15]طباعِهم . فدعاهم بالترغيب إلى جنّته وجعلها عِوَضاً مما تركوا فى جَنبِ [16]طاعته ، وزَجَرَهم بالترهيب بالنار على مَعصيته وخوّفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جلّ ثناؤه [17]والطبع الأوّل جَرَوا على

---

(١) التنوق ، صححنا : التلون ⊃ ى — (٢) والطعم ذو الطيبة ⊃ — كراهيته فى طبائعها ى — (٤) فهذه الخلال التى < وصفت لك > تجمعها ى — (٥) إلا أنها ى — (٦) [قدر] القلة [فيه] والكثرة ى — (٧) [به] ⊃ — (١٣) [ولا ينقادون] ى — (١٤) [وأن الأمر والنهى] ⊃ — [فيهم] ى — (١٥) طبائعهم ى — (١٦) طاعتهم ⊃ — (١٧) والطباع ⊃

سَنَن الفِطرة *وعادةِ الشيمة ، ثم أقام الرّغبة والرّهبة على حدود العَدل وموازين النّصَفة ، وعدَّلهم تعديلاً متفقاً فقال فَمَنْ يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

ثم أخبر *الله تبارك وتعالى أنه غيرُ داخلٍ فى تدبيره الخَلَلُ ولا *جائز عنده المحاباة ، لِيَعمل كلُّ عامل على ثِقة مما وَعَده وأوعده . فتعلّقت قلوبُ العباد بالرّغبة والرّهبة ، فاطّرد التدبير واستقامت السياسة ، لموافقتها ما فى الفِطرة وأخذِها بمجامع المصلحة .

ثم جعل أكثر طاعته فيما تَستثقِل النفوسُ وأكثرَ معصيته فيما تَلَذّ . ولذلك قال النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلم : « حُفّت الجنّة بالمكاره والنّار بالشهوات » ، *يخبر أنّ الطريق إلى الجنة احتمالُ المكاره والطريقَ إلى النار اتّباعُ الشهوات* . *فإذ كانوا لم يَصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلّا بما وصفتُ *لك من الرغبة والرهبة ، فأعجزُ الناس رأياً وأخطأهم تدبيرًا وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها مَن أمّل أو ظنّ أو رجا أنّ أحداً مِن الخلق — فوقَه *أو دونَه — يَصلح له ضميرُه أو يصِحّ له بخلاف ما دبَّرهم الله عليه فيما بينه وبينهم . فالرغبة والرّهبة *أصلا كل تدبير وعليهما مدارُ كلّ سياسة عَظمت أو صَغُرت . فاجعلهما مِثالك الذى يُحتذَى عليه ورُكنك الذى يُستند إليه

(١) وعادات د — (٤) [الله] د — جائزة د — (١٠-١١) [يخبر . . . الشهوات] ف — (١١) فاذا د — (١٢) [لك] ف — (١٤) أو دونه < أو من يظن أن > يصلح ف ، أو دونه يصح له ضميره بخلاف د — (١٥) أصل لكل د

(٢-٣) سورة الزلزال ٧-٨

(*)* واُعلم أنك *إن أهملتَ ما وصفتُ لك ، عرّضتَ تدبيرك للاختلاط . وإن *آثرتَ الهوينا واتّكلت على الكَفاة فى الأمر الذى لا يجوز فيه إلّا نَظَرُك ، *وزجّيت أمورَك على رأى مدخول وأصل غير محكم ، رجع ذلك عليك بما لو *حُكّم فيك عدوُّك كان ذلك غاية أمنيته وشفاء غيظه

واُعلم أنّ إجراءك الأمورَ مجاريَها واستعمالك الأشياء على وُجوهها ، يجمعُ لك أُلفة القلوب ويُعاملك كلُّ مَن عاملك بمودّةٍ *أخذاً وإعطاء ، وهو على ثِقَة مِن *بَصَرك *بمواضع الإنصاف وعلمك بموارد الأمور(*)

واُعلم أنّ أثَرَتَك على غير النَصيحة والشَفَقَة والحُرمة والكِفاية *توجب المباعَدة وقلّة الثِقة ممن آثرته أو آثرتَ عليه . فاُعرف *لأهل البلاء ممن جرَت بينك وبينه مودّةٌ أو حُرمة — ممن فوقك أو دونك أو نظراءك — أقدارَهم ومنازلَهم ، *ثم لِتَسكُن أمورُك معهم على قدر البلاء والاستحقاق . *ولا تؤثر فى ذلك أحداً بهوى ، فإنّ الأَثَرَة على الهوى توجبُ السَخطة وتوجبُ استصغارَ عظيم النعمة *ويُمحق بها الإفضالُ *وتَفسُد بها الطائفتان مَن *آثرت ومَن آثرتَ عليه

---

(١) اعلم م — إذا أهملت م — (٢) آثرت الهوينا على الكفاية التى لا يجوز فيها د — على الكفاية فى الأمر م — (٣) وركبت أمورك د ، ورجيت أمرك م — (٤) حكم < به > فيك د — (٦) أخذا واعطاء ، صححنا : أو أخذ أو اعطاء ⊙ ، وأخذ واعطاء م ، فى أخذ أو اعطاء د — (٧) نصرك د م — بمواقع د — (٨) توجب < لك > د — (٩) لأهل البلد ⊙ — (١١) ثم لم تسكن أمورك معهم بقدر ⊙ — (١٢) ولا تؤثر فى ذلك أحدا بهوى ، صححنا : ولا تؤثر فى ذلك أخذ الهوى ⊙ ، ولا تؤثر أحدا فى ذلك بهوى د — (١٣) ويمحى د — وتفسد عليها ⊙ — (١٤) آثرته د

(*-*) (١-٧) واعلم ... الأمور : رواية م (٤)

أمّا مَن *آثرتَ فإنه يعلم أنك لم تؤثره باستحقاق بل لِهَوًى فهو مترقِّب أن ينتقل هواك إلى غيره *فتتحول أثرتُك حيثُ مالَ هواك . فهو مدخول القلب فى مودّتك غيرُ آمِنٍ لتغيُّرك

وأمّا من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطعن عليك وأعطيتَه الحُجّة على نفسك . فكلٌّ من يَعمل على غيرِ ثقةٍ *عاد ما أراد به النَّفعَ ضَرَراً *والإصلاحَ فساداً . وربما آثرَ الرجلُ المرءَ مِن إخوانه بالعطيّة السنيّة *على بلاءٍ أبلاه ، فيعظُمُ *قدرُه عنده ، حتى لعلّه تطيب نفسُه ببذل *ماله ودمه دونَه . *فإن أعطى مَن أبلى كبلائه وكانت له مثلُ *دالّته أكثر مما أعطاه ، انتقل *كلٌّ محمود مِن ذلك مذمومًا وكلٌّ مستحسن *قبيحًا . *وكذلك الأمرُ فى العُقوبة يجريان مجرى واحداً . *فاجعل العدلَ والنَّصَفة فى الثواب والعقاب *حَكَمًا بينك وبين إخوانك ، فمن قدّمتَ منهم فقدِّمه *بالاستحقاق وبصحة النيّة فى مودّته وخلوص *نصيحته مما قد بلوتَ من أخلاقه وشِيَمه وعلمتَ بتجربتك له أنّه يعلمُ أن صلاحَه موصولٌ بصلاحك وعطبَه كائنٌ مع عطبك . ففوّض الأمرَ إليه وأشرِكه فى خواصّ *أمورك وخفىّ أسرارك . ثم أعرف له قدرَه فى مجلسك *ومُحاورتك *ومُعاملتك ، فى كلّ حالاتك ومزاولاتك ، فى خَلَواتك معه* وبحضرة جُلسائك . فإنّ ذلك

(١) آثرته ى — (٢) فتتحول ى — (٥) حال ما أراد ى — (٦) والاصلاح <فيه> فسادا ى — (٧) بلا بلاء ب — فيعظم قدرها ب — (٨) ماله ونفسه ى — فان <من> أعطى ب — دلالته ب — (٩) كل مذموم من ذلك محمودا ب — مستقبحا ب — (١٠) وكذلك ذلك ب — واجمل ب — (١١) حاكما ب — (١٢) على الاستحقاق بصحة ب — نصيحته <لك> ممن قد بلوت فى أخلاقه ب — (١٤) أمرك ى — (١٥) ومحادثتك ى — (١٥-١٦) [ومعاملتك . . . معه] ى

°زيادةٌ فى نيّته وداعيةٌ لمن دونَه إلى التّقرب إليك بمثل نصيحته . (*)فإن °ابتُليتَ فى بعض الأوقات بِمَن °يتقرّب بحرمة ويمُتُّ بدالَّة ، يطلبُ المكافأة بأكثرَ مما يَستوجب ، فدعاك الكرمُ °والحياء إلى تفضيله على من °هو أحقُّ منه ، إما °خوفاً من لسانه أو مُداراةً لغيره ، فلا تدع الاعتذارَ إلى °من فوقَه من أهل البلاء والنصيحة وإظهارَ ما أردتَ من ذلك لهم . فإنّ أهلَ خاصتك والمؤتمنين على أسرارك ، هم شركاؤك فى العَيش ، °فلا تستهيننّ بشىء من أمورهم . فإنّ الرجل قد يترك الشىء من ذلك أتّكالاً على حُسن رأى أخيه ، فلا يزالُ °ذلك يجرحُ فى القلب °وينمو ، حتى يولِد ضِغناً ويحولَ عداوة . فتحفّظ من هذا الباب واحمل إخوانَكَ عليه بجُهدك

وستجدُ °فيمن يتصل بك مَن °يغلبه إفراطُ الحرص وحُمَيَّا الشره ولينُ جانبك له ، على أن يَنقم العافية ويطلبَ °اللحوق بمنازل °مَن ليس مثلَه ولا له مثل دالّته ، فتلقاه لما °تصنع به مُستقلّا ولمعروفك مستصغراً . وصلاحُ مَن كانت هذه حالُهُ بخلاف ما فَسَد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشِيَمهم ، وداوِ كلَّ مَن لابدّ لك مِن مُعاشرته بالدواء الذى هو أنجعُ فيه : إنْ ليناً فليناً ، وإن شدّةً فشدّة . فقد قيل فى المثل :

مَن لا يؤدّبه الجميـــلُ ففى عُقوبته صلاحُه(*)

---

(١) زائد فى نيتك وداع ى — (٢) بليت ى — يضرب ى — (٣) [والحياء] ى — [هو] ت — (٤) تخوفا ت — من < هو > فوقه م — (٦) فلا تستهن ى ، لا تستهين م — (٨) كذلك م — وينمى ى — (١٠) ممن يتصل بك ممن ت ، من يتصل بك ممن م — من يعطيه ى — (١١) اللحاق ى — من ليس < هو > مثله ت — (١٢) تصنع [به] مستقلا ى

(*-*) (١-١٦) فان ابتليت . . . صلاحه : رواية م (٥)

*وقال بعضُ الحكماء : ليس بحكيمٍ مَن لم يُعاشر *مَن لا يجدُ مِن مُعاشرته بدًّا* بالعدل والنَّصَفة ، حتى يجعل الله *له من أمره فرجاً ومخرجاً

*فاحفظ هذه الأبوابَ التي يوجِبُ بعضُها بعضاً . وقد ضَمِنَت *لك أوائلُها كونَ أواخرها ، *فاعرِفها واقتبسها ، واعلم أنّه متى كان الأوّلُ منها وَجَب ما بعده لا بُدّ منه . فاحذر المقدّمات التي يَعقُبها المكروه ، واحرِص على توطيد الأمور التي على أثرها السلامة ، *والقح في البدئ أمورًا* *نِتاجها العافية . فمِن الأمور التي يوجِبُ بعضُها بعضاً : المنفعةُ توجب المحبّة والمضرّةُ توجب البَغضاء والمُضادّةُ توجب العَداوة ، وخلافُ الهوى يوجب الاستثقال *ومتابعتُه توجب الأُلفة ، والصدقُ يوجب الثقة والكذبُ يورث *التُّهَمة والأمانةُ توجب الطُّمأنينة ، والعدلُ يوجب اجتماعَ القلوب والجَورُ يوجب الفُرقة ، وحُسنُ الخُلُق يوجب المودّة وسُوء الخُلُق يوجب *المباعدة ، والانبساطُ يوجب المُؤانسة والانقباضُ يوجب الوَحشة ، *والكِبرُ *يورث المقتَ والتواضعُ يوجب المِقة ، *والجودُ بالقَصْد يوجب الحمد والبخلُ يوجب المذمّة ، والتَّواني يوجب التضييع والجِدُّ يوجب رخاء *الأعمال ، والهُوَينا تورث الحَسرة والحزمُ يورث السُّرور ، والتغريرُ *يوجب النَّدامة والحَذَرُ يوجب العُذر *وإصابةُ التدبير توجب بقاء النعمة ، والاستهانةُ توجب التَّباغي والتباغي *مقدّمة الشرّ وسببُ البوار

---

(١) وقد قال ى — (١-٢) من لا بد له من معاشرته ى — (٢) له [من أمره] فرجا [ومخرجا] ض — (٣) واحفظ ى — [لك] ى — (٤) [فاعرفها] واقتبسها — (٦) والمسح فى يدى الأمور التى ض — تناتجها ى — (٨) والمتابعة ى — (٩) النميمة ض — (١١) التباعد ى — (١٢) موضع أكلة فى ض وكأنها « والتكبر » — يوجب ى — (١٣) والجود والفضل يوجبان ى — (١٤) [الأعمال] ى — (١٥) يورث ى — (١٦) [وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة] ض — (١٧) مقدمات ض

ولكلّ شيء من هذه إفراط وتقصير . وإنّما تصحّ نتائجها إذا أقيمت على حدودها . وبقدر ما يَدخلُ من الخلل فيها يَدخل فيما يتولّد منها ، لا بدّ منه ولا مَزحَلَ عنه ، عليه عادةُ الخَلق وبه جرَت طبائعُهم ، وتمامُ المنفعة بها إصابةُ مواضعها . فالإفراطُ فى الجُود يوجب التبذير ، والإفراط فى التواضُع يورث المذلّة ، والإفراطُ فى الكِبر يدعو إلى مَقت الخاصّة ، والإفراطُ فى المؤانَسة يدعو خُلَطَاءَ السُّوء ، والإفراطُ فى الانقباض يوحشُ ذا النَّصيحة ، وآفةُ الأمانة ائتمانُ الخائنة ، وآفةُ الصدق تصديق الكَذَبة ، والإفراط فى الحَذَر يدعو إلى أن لا يُوثَق بأحد وذلك ما لا سبيل إليه ، والإفراطُ فى المضرّة مَبعثة على حَرْبك ، والإفراطُ فى جَرّ المنفعةِ غِنًا لمن أفرطتَ فى نفعه عنك

وأحذر كلّ الحَذَر أن يختدعك الشّيطان عن الحزم ، فيمثّلَ لك التّوانى فى صورة التوكّل ويسلبك الحَذَر ويورثك الهُوينا بإحالتك على الأقدار . فإنّ الله إنّما أمَرَ بالتوكّل عند انقطاع الحِيَل والتسليم للقَضاء بعد الإعذار . بذلك أنزل كتابه وأمضى سُنّته ، فقال خُذُوا حِذْرَكُمْ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ . وقولُ النبيّ صلّى الله عليه وآلِه وسلّم « إعقِلها وتوكّل » . وسُئل ما الحزمُ ؟ قال الحذر . فتحفّظ من هذا الباب وأحكِم معرفتَه إن شاء الله تعالى

---

(١) من هذا ص — (٤) النعمة — موضعها د — (٥) يوجب د — يدعو العقب ص — (٦) والإفراط فى < الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد و > الانقباض ص — (٧) ذوى النصيحة د — الائتمان ص — (٨) يدعو [إلى] ألا يثق د — (٩) [والإفراط فى المضرة ... حربك] ص — (١١) يخدعك د — الحرص ص — (١٣) فإن الله < عز وجل > د — (١٥) [وآله] د

---

(١٤) سورة النساء ٧١ والبقرة ١٩٥

واعلم أنّ أكثرَ الأمور إنّما *هو على العادة وما تُضَرَّى عليه النُفوس ، ولذلك قالت الحكماء : العادةُ أملكُ بالأدب . فَرُضْ نفسَك على كل أمرٍ محمود العاقبة *وضَرِّها بكلّ ما لاَ يُذَمُّ من *الأخلاق ، يَصِرْ ذلك *طِباعًا ويُنسبْ إليكَ منه أكثرُ مما أنت عليه

واعلم أنّ الّذى يُوجب لكَ اسمَ الجود القيامُ بواجب الحقوق عند النوائب مع بعض التفضُّل على الراغبين ، وإذا وجب لك اسمُ الجود زالَ عنك اسمُ البُخل

واعلم أنّ تثميرَ المال آلةٌ للمكارم وعَونٌ على الدين ومُتألَّف للإخوان ، *وأنّ مَن قد فقد المال قلّت الرغبةُ إليه والرهبةُ منه ، ومن لم يكنْ بموضع رَغبةٍ ولا رهبةٍ استهان الناسُ *به . فاجهدْ الجهدَ كلَّه ألّا تزالَ القلوبُ معلّقة منك برغبةٍ *أو رهبةٍ فى دينٍ أو دنيا

واعلم أنّ السَرَف لا بقاء معه لِكثير ولا تثميرَ معه لِقليل ولا تَصلُحُ عليه دُنيا ولا دين . *وتأدّب بما أدّب الله نبيَّه* فقال وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا . وقالت الحكماء : القَصدُ أبْقَى للجِمام . فداوِم حالَك وبقاءَ النعمة عليك بتقدير *أمورِكَ على قدرِ الزمان *بقدر الإمكان . فقد قال الشاعر

مَن سابقَ الدَهرَ كَبَا كَبوةً لم يَسْتَقِلها مِن خُطَى الدَهرِ

(١) هى ى — (٣) ورضها ى — الاخلاص يصير ⊙ — (٤) طبعا ى — (٩) و[أن] من [قد] فقد ى — (١٠) بقدره ى — (١١) ورهبة ى — (١٣) وتأديب الله فيه ما أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم ⊙ — (١٥) أمرك ى — (١٦) وبقدر ى

(١٣ — ١٤) سورة الإسراء ٢٩

فأَخْطُ مَعَ الدَهرِ إذا ما خَطَا　　وأْجرِ مَعَ الدّهرِ كما يَجْـرى

وأعلم أنّ الصَـمت فى موضعه ربّما كانَ أنفعَ من الإبلاغ بالمنطق فى *موضعه وعند إصابة فُرصته ، وذلك صمتُك عنـد مَن يعلم أنّك لم تصمتْ عنه عِيًّا ولا رَهبةً . فليَزِدْكَ فى الصَمت رغبـةً ما ترىَ من *كثرةِ فضائح المتكلّمين فى غير الفُرَص وهَذَرِ مَن أطلق لسانَه بغير *حاجة

وأعلم أنّ الجبنَ جُبنان والشجاعةَ شجاعتان ، *وليس تكونُ الشجاعة والجبنُ إلّا فى كلّ أمرٍ لا يُدرَى ما عاقبتُه يُخاطَر فيـه بالأنفسِ والأموال . وإذا أردتَ الحزمَ فى ذلك فلا تَشجُعَنّ نفسُك على أمرٍ أبداً إلاّ والذى ترجو من نفعه فى العاقبة أعظمُ ممّا تبذلُ فيه *فى المُسْـتقبَل ، ثمّ يكونُ *الرَجاء فى ذلك أغلبَ عليكَ من الخوف . وهاهنا موضعٌ يُحتاج فيه إلى النَظر : فإن كان ذلك أمراً واجباً فى الدين أو خوفاً لعارٍ تُسَبُّ به الأعقابُ فأنت معذورٌ *بالمُخاطرة فيه بنفسك ومالِك . وإن كان *أمراً تعظُمُ منفعتُه للدُّنيا إلاّ أنك لا تنالهُ إلاّ بالخِطار بمُهجة نفسك أو بتعريضِ كلّ مالِك للتَلَف ، فالإقدامُ على مثل هذا ليس بشجاعةٍ ولـكن حماقة بيِّنة عند جميع الحكماء . وقد قالت *علماء أوائل الناس : لا تُرسِل السَاقَ إلاّ *مُمسكاً ساقاً . وقالوا : لا تُخرِج الأمرَ كلّه من يدك وخذ بأحد جانبيه . ثمّ الشجاعةُ والجبنُ فى ذلك بقدر الحالات والأوقات

وأعلم أنّ أصلَ ما أنت مُستظهِرٌ به على عدوّك ثلاثُ خِلال : أشرفُها أن

---

(١) على ما خطا د — (٣) فى < غير > موضعه ق — (٤) [كثرة] د — (٥) حاجته د — (٦) وليست الشجاعة د — (٩) من المستقبل ق — (٩-١٠) الرجاء أعظم ذلك ق — (١٢) فى المخاطرة د — أمر د — (١٥) علماء الأوائل د — ممسك ق

تأخذَ عليه بالفَضل وتبتدئه بالحُسنى ، فتكونَ عليه رَحمةً ولنفسك ناظراً ، فإنّ كثرةَ الأعداء تنغيصٌ للسرور . وقد قال الله تبارَكَ وتعالى أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . فإنْ كان عدوُّك ممّن لا يصلُح على ذلك ، فحصِّن عنهُ أسرارَكَ وعَمِّ عليه آثارَ تدبيرك ولا يطَّلِعنّ على شيء من مَكايدِكَ له بقول ولا فعل ، فيأخذَ حِذْرَه ويعرفَ مواضعَ عوارك . فإنّ تحصينَ الأسرار أخذٌ بأزمّة التدبير وإكثارُ الوعيد للأعداء فَشَلٌ ، ولكنْ داجِ عدوَّك ما داجاك وأحصِ معايبه ما لاحاك .

وقال الشاعر :

كلٌّ يُداجي على البَغضاء صاحبَه زَكِنتُ منهم على مِثل الذي زَكِنوا

وأُعلم أنّ أعظمَ أعوانك عليه الحججُ ثم الفُرصة . ثم لا تُظهِرنّ عليه حُجَّةً ولا تَهتبلْ منه غِرّةً ولا تطابنّ له عَثرةً ولا تهتكنّ له سِترًا ، إلاّ عند الفُرصة في ذلك كلّه وفي المواضع التي يجبُ لك فيها العذرُ ويعظُمُ فيها ضَرَرُه . هذا إن كان العفوُ عنهُ شرًّا له . وإن كان ممّن يُظهر لك العَداوة ويكشفُ لك قِناعَ المحاربة وكان ممّن أعياك استصلاحُه بالحِلم والأناة ، فلتكن في أمره بينَ حالين : استبطانِ الحَذَر منه والاستعدادِ له ، وإظهارِ الاستهانةِ به . ولستَ مستظهراً عليه بمثل طَهارتك من الأدناس وبراءتِك من المعايب . فلتكن هذه سيرتُك في أعدائك

(٤) [آثار] د — (٥) مكايدتك ت — (٦) والاكثار من الوعيد للأعداء د — (٧ - ٩) [ما لاحاك . . . زكنوا] د — (١٠) [ثم الفرصة] ت — (١١) [إلا] ت — (١٥) استظهار د

(٢ - ٣) سورة فصلت ٣٤

وأعلم أنّ إشاعة الأسرار فسادٌ فى كلّ وجهٍ من الوجوه *من العدوّ والصّديق . وقد رُوىَ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال « استعينوا على الحوائج بسترها ، فإنّ كلّ ذى نعمةٍ محسود »

وإذا أفشيتَ سرّكَ فجاءت الأمورُ على غير ما تُقدّر كان ذلك منكَ فضلاً من قولك على فعلك . وقد قيل *فى الأمثال : مَن أفشى سرّه كثُر *المتآمرون عليه . *فلا تضعْ سرّكَ إلاّ عندَ من يضرّه *نشرُه كما يضرّك ويَنفعُه *سترُه بحسب ما ينفعُك

وأعلم أنّك تَستصحِبُ من الناس *أجناساً متفرّقةً حالاتُهم متفاوتةً منازلُهم ، *وكلّهم بك إليه حاجة وكلّ طائفةٍ تسدّ عنك كثيراً من المنافع لا تقومُ به مَن فوقها ، ولعلّهم مجتمعون على نصيحتك والشَّفَقةِ عليك . فمنهم من تريدُ منه الرأىَ والمشورة *ومنهم مَن تريده للحفظِ والأمانة* ومنهم مَن تريدُه للشدّة والغلظة ومنهم مَن تريدُه للمِهنة ، وكلٌّ يسدّ مَسدَّه على حِياله . وقد قيل فى الحكمة : إنّ الخِلالَ تنفعُ حيثُ لا ينفعُ السيف . ولا تُخلِينّ أحداً *منهم — عظُم قدرُه أو صغُرت منزلتُه — مِن عِنايتك وتعهُّدك ، بالجزاء *على الحَسَنة والمعاتبةِ عند العَثْرة ، لِيَعلموا أنّهم منك بمرأًى ومسمعٍ . ثم لا تجوزنّ بأحدٍ منهم حدَّه ولا تُدخلْه فيما لا يصلُح له ، يستقمْ لك حالُه *ويتّسق لك أمرُه

(١) والعدو ف — (٤ - ٥) [وإذا أفشيت . . . على فعلك] ى — (٥) فى <مثل من> الأمثال ى — (٦) المتادون ى — ولا ى — [انشره] ى — (٧) نشره ف — (٨) أصنافا ى — (٩) [و] كلهم ى — (١١) [ومنهم . . . والأمانة] ف — (١٤) [منهم] ى — (١٥) عند ى — (١٧) يتفق ف

وأعلم °أنْ سيمرُّ بك °فى معاملاتِ الناس حالاتٌ تحتاجُ فيها إلى مُداراةِ °أصنافِ الناس وطبقاتِهم ، يبلغُ بك غايةَ الفضيلةِ فيها وكمالَ العقل والأدب . منها ، أن تسالمَ أهلَها وتملكَ نفسَك عن هواها °وتكفَّ عن جِماحِها ، °بأمرٍ لا يُحرِجُك فى دينك ولا عِرضك ولا بدنك ، بل يفيدك °عِزَّ الحِلم وهَيْبةَ الوقار . وهى أمورٌ مختلفة تجمعها حالٌ واحدة : منها أن تأتىَ محفِلاً فيه °جمعٌ من الناس ، فتجلسَ منه دونَ الموضع الذى تستحقّه ، حتّى يكونَ أهلُه °الذين يرفعونك فتظهرَ جلالتُك وعِظَمُ قدرِك . ومنها أن يُفيضَ القومُ فى حديثٍ عندك منه مِثلُ ما عندهم أو أفضل ، فيتنافسون فى إظهار ما عندهم . فإن نافستَهم كنتَ واحداً منهم ، وإن أمسكتَ اقتضَوْكَ ذلك ، فصِرتَ كأنّك ممتنٌّ عليهم بحديثِك ، وأنصتوا لكَ ما لم يُنصِتوا لغيرك . ومنها أن °يتمارى جُلَساؤك ، والمِراء نتاج اللجاجة وثمرةٌ أصلها الحميّة ، فإن ضبطتَ نفسَك كان تحاكُمهم إليك ومعوَّلُهم عليك .

وأعلم أنّ طبعَ النفوس — °إذ كان على حُبِّ العُلوِّ والغَلَبة — أنّ فى تركيبها بُغضَ مَن استطالَ عليها . فأستدعِ محبّةَ العامّة بالتواضع ومودّةَ الأخلاّء بالمؤانسةِ والاستشارةِ والثقةِ والطمأنينة .

وأعلم أنّ الذى تُعامِل به صديقَك هو ضدُّ ما تُعامِل به عدوّك ، فالصديقُ وجهُ معاملتِه المسالمة والعدوُّ وجه مُعاملته المُداراة °والموارَبة ، °والمسالمة والمُداراةُ

---

(١) أنه ى — مع معاملات ۞ — (٢) اختلاف ۞ — (٣) لعل الصواب : وتكف من — (٣ - ٤) بالأمر الذى لا ى — (٤) عن ۞ — (٥) جماعة ى — (٦) [الذين] ۞ — (١٠) تمارى ى — (١٣) إذ كان ، صححنا : إن كان ۞ ، إذا كان ى — (١٧) [والموارية] ى — [والمسالة والمداراة] ۞

هما ضدّانِ يتنافيان ¹يُفسدُ هذا ما أصلَحَ هذا² ، ³وكلما نقصتَ من أحد البابين زادَ فى صاحبه ، إنْ قليلٌ فقليل وإن كثيرٌ فكثير . فلا تسلمْ ⁴بالموار بة صَداقة ⁵ولا تظفرْ بالعدوّ مع الاستسلام إليه . فضع الثقةَ موضِعَها وأقِم الحذَرَ ⁶مُقامه وأسرِعْ إلى التفهّم بالثّقة ⁷ولا تبادر إلى التّصديق ولا سيّما بالمحال من الأمور

وأعلم أنّ كلّ علمٍ ⁸بغائب — كائناً ما كان — إنّما يُصابُ مِن وُجوه ثلاثة لا رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لِغيرك إلى ⁹غايةِ الإحاطات لاستئثار الله بها . ولن تَهنأ بعيشٍ مع شدّة التحرّز ولن يتّسق لك أمر مع التَضييع . فاعرف أقدار ذلك

فما غاب عنك ممّا قد رآه غيرك ¹⁰مما يُدرَك بالعِيان ، فسبيلُ العلم به الأخبارُ المتواترة التى يحملُها الولىُّ والعدوُّ والصالح والطالح المُستفيضةُ فى الناس ، فتلك لا كُلفةَ على سامعها من العِلم بتصديقها . فهذا الوجهُ يستوى فيه العالِم والجاهل

وقد يجىء خبرٌ ¹¹أخصّ من هذا ، إلاّ أنّه لا يُعرَف إلاّ بالسُؤال عنه والمفاجأةِ لأهله . كقومٍ ¹²نقلوا خبراً ، ¹³ومثلُك يحيطُ علمُه أنّ مثلهم فى تفاوتِ أحوالهم وتباعدِهم من التَعارف ¹⁴لا يمكنُ فى مِثله التواطؤ ، وإن جَهِلَ ذلك أكثرُ النّاس . وفى مثلِ هذا الخبر ¹⁵يمتنعُ الكَذِب ولا يتهيّأ الاتّفاق فيه على الباطل

---

(١) صلاح هذا ما أفسد هذا ى — وكلما نقص من أحدها ى — (٢) بالمداراة ه — (٣) فلا ه — (٤) مكانه ى — ولا تبادرن ى — (٦) [بغائب] ى — (٧) غايات ى — (١٠) [مما يدرك] ى — (١٤) أصبح ه — (١٥) فعلوا خيرا ه — وعلمك محيط ى — (١٦) لا يكون ى — (١٧) يشنع ى

وقد يجىء خبرٌ أخصُّ من هذا يحملُه الرّجلُ والرّجلان ممن *يجوز أن يَصدُقَ ويجوز أن يكذب . فصِدقُ هذا الخبر فى قلبك إنما هو بحسنِ الظنّ بالمُخبِر والثقة بِعدالته . ولن يَقومَ هذا *الخبر من قلبك ولا قلبِ غيرك مَقامَ الخبرين *الأوّلين . ولو كان ذلك كذلك بَطَلَ التَصنُّع بالدِّين واستوى الظاهرُ والباطنُ من العالمين

ولمّا أن كان موجوداً فى العُقول أنّه قد يُفتَّشُ بعضُ الأُمَناء عن خيانة و بعضُ الصادقين عن كَذِب ، *وأنّ مثلَ الخبرين الأوّلين لم يتعقّب الناسُ فى مِثلهما كذباً قط ، *عُلِمَ أنّ الخبرَ إذا جاء *من مِثلهما جاء *مجىءَ اليقين ، وأنّ ما عُلِم من خبر الواحد فإنّما هو بحسن الظنِّ والائتمان . *هذه الأخبارُ عن الأمور التى تُدركها الأبصارُ

فأمّا العلمُ بما غابَ ممّا لا يُدركه أحدٌ بعيان ، مثلُ سرائرِ القلوب وما أشبهها ، فإنما يُدرَكُ علمُها بآثار أفاعيلها *وبالغالبِ من أمورها على غير إحاطة كإحاطة الله بها

وأوّل العلمِ بكلّ غائب الظُنون . والظُنونُ إنّما تقعُ فى القلوب بالدلائل ، فكلّما زاد الدّليلُ قَوِىَ الظَنُّ حتّى ينتهىَ إلى غايةٍ تزولُ معها الشُكوكُ عن القلوب ، وذلك لِكثرة الدلائل *ولِترادُفها

---

(١) <لا> يجوز ء — (٣) [الخبر] ت — (٤) الأولين <أبدا> ء — (٧) أو مثل ت — (٨) على ت — مجىء ء — على اليقين ء — (٩) بهذه ت — (١٢) وبالغائب ت — (١٤) وأوائل ء — (١٦) [ولترادفها . . . الغائبة] ت

فهذا غايةُ علمِ العباد بالأمور الغائبة. (*)فمن عَرَفَ ما طُبِع عليه الخلقُ وجرت *به عاداتُهم وعَرَفَ أسبابَ اتّصالِهم واتّصالِه بهم وتقصّى *عِلَلَ ذلك، كان خليقاً — إن لم يُحِطْ بعلمِ ما فى قلوبهم — أن يقعَ مِن الإحاطةِ *قريباً

(**)واعلم أنّ المقاديرَ ربّما جرَت بخلافِ ما يُقدِّر الحكماء، فنالَ *بها الجاهلُ فى نفسه المختلطُ فى تدبيره، ما لا ينالُ الحازمُ الأريبُ الحَذِر. فلا يدعُوَنّك ما ترى من ذلك إلى التضييع والاتّكال على مثلِ تلك الحال، فإنّ الحُكماء قد أجمعتْ أنّ مَن أخَذَ بالحزمِ وقدَّم الحَذَرَ، فجاءتْ المقاديرُ *بخلاف ما قدَّر، كان عندهم أحمدَ رأياً وأوجبَ عُذراً ممّن عَمِلَ بالتفريط، وإن اتّفقت له الأمور على ما أراد. *ولعمرى ما يكاد *ذلك يجىء إلاّ فى أقلّ الأمور. *وما كثُرَ مجىء السّلاماتِ إلاّ لِمَن أتى الأمورَ مِن وجوهِها. وإنّما الأشياء بعوامِّها*

فلا تكونَنَّ بشىء ممّا فى *يَدِكَ أشدَّ ضِنًّا ولا عليه أشدَّ حَدَبًا منك بالأخِ الذى قد بلوْتَه *فى السَّرّاء والضَّرّاء، *فعرَفتَ مذاهبه *وخبرتَ شِيَمه وصحَّ لك غَيبُه وسَلِمَت لك ناحيتُه. فإنّما هو *شقيقُ رُوحك وباب

(٢) عليه ى — (٣) على ذاك ➀ — (٣ - ٤) قريبا من الإحاطة ى — (٥) [بها] ➀ — (٩) خلاف م — (١٠ - ١٢) [ولعمرى ... بعوامها] م — (١٠) يجىء ذلك ى — (١١) [وما كثر ... الأمور] ➀ — (١٣) يديك ➀ — (١٤) بالسراء م — [فعرفت مذاهبه] ➀ — واختبرت ى — (١٥) شق ى

(*) ص ٢٦، ١ — ٢٧، ١١ [فمن عرف ... والله يوفقك] : انتقل فى ➀ إلى ما يلى « والمواظبة عليه » ٣٦، ٢

(**) واعلم ... المهذب (ص ٢٧ س ٧) رواية م ٦

الرَّوْح إلى حياتك ومُسْتَمَدُّ رأيك °وتَوأَمُ عقلك . ولستَ منتفعاً بعَيشٍ مع الوحدة ولا بدّ من °مؤانسةٍ . وكَثرةُ الاستبدالِ تهجُم بصاحبه على المكروه . °فإذا صفا لك أخٌ فكُنْ به أشدَّ ضِنًّا منكَ بنفائس أموالك ، ثمّ لا يُزْهِدنّك فيه أن ترى منه خُلقًا أو خُلُقين تكرَهُهما ، فإنّ نفسَكَ التي هي أخصُّ النُّفوسِ بك لا تُعطِيك المَقادةَ في كلّ ما تُريد ، فكيف بنفسِ غيرِك . وبِحَسبِك أن يكون لك من أخيك أكثرُه ، وقد قالت الحُكماء : مَن لكَ بأخيك كلّه ، وأيُّ الرِّجال المهذَّب . ثمّ °لا يمنعْك ذلك من الاستكثار من °الأصدقاء ، فإنّهم جُنْدٌ مُعَدُّون لك ينشرون محاسنَك ويُحاجُّون عنك . ولا يحملنّك استطرافُ °صديقٍ ثانٍ على° مَلالة الصديق الأوّل ، فإنّ ذلك سبيلُ أهل الجَهالة ، مع ما فيها من الدَّناءَة °وسُوءِ °التَّدبير وزُهدِ °الأصدقاء جميعاً في إخائك ، والله °يوفِّقك

وستجدُ في الناس مَن قد جرَّبته الرجالُ قَبلَك ومَحَضَه اختبارُهم لك . فمن كان مَعروفاً بالوفاء في أوقاتِ الشِّدّة وحالاتِ الضَّرورة فنافِس فيه واُسبُق إليه ، فإنّ اعتقادَه أنفسُ °العُقدة . ومَن بلاهُ غيرُك فكُشِف عن كُفر النعمة والغَدر عند الشِّدّة ، فقد حَذَّرك نفسَه وإن آنسَك ، وكما غَدَر بغيرك يغدر بك . فإنّ مَن شِيمتُه الوفاء يَفِي للصَّديق والعدوّ ، ومَن طبيعتُه الغَدْرُ °لا يَدوم ، وإنّما يميلُ مع الرُّجحان ، °يَذِلُّ عند الحاجة ويَشمَخُ مع الاستغناء . فاحذَر ذلك أشدَّ الحَذَر

(١) يوم غفلتك ى — (٢) المؤانسة م — (٣) فان م — (٧) لا يمنعك ى — (٨) الصديق ى — (٩) الصديق على ن — (١٠) سوء ى : تقن ن — التدبير ى — الصديقين ن — (١١) موفقك ى — (١٤) العقد ى — (١٧) لا يفي لأحد ى — [يذل] في وقت الحاجة ى

وأعلم أنّ الحكماء لم تذُمّ شيئاً *ذَمّها أربعَ خِلال : الـكذبَ ، فإنه جِماعُ كلّ شرّ . وقد قالوا : لم يكذبْ أحـدٌ قطُّ إلاّ لصِغَرِ قَدرِ نفسِـه عندَه . والغضبَ ، فإنّه لُؤمٌ وسُوء مَقدُرة . وذلك أنّ الغضب ثمرةٌ لخلافِ ما تهوى النّفس ، فإن جاء الإنسانَ خلافُ ما يهوَى ممّن فوقه أغضى وسمّى ذلك حُزْناً ، وإن جاءه ذلك ممّن دونه حمله لؤمُ النّفس وسوء الطِباع على الاستطالة بالغضب والمقدرة *بالبَسطة . والجَزَعَ عند المُصيبة التى لا ارتجاعَ لها ، فإنّهم لم يجعلوا لصاحبِ الجزعِ فى *مِثل هذا عُذراً ، لِما يتعجّل من غمّ الجزع ، مع عِلمِه بفَوتِ المجزُوعِ عليـه . وزعموا أنّ ذلك من إفراطِ الشَرَه ، وأنّ أصلَ *الشرَه والحَسَـد واحد وإن افترق فرعاها . وذمّوا الحسَدَ كذمّهم الجزَع ، لِما يتعجّل صاحبُه من *ثِقَل الاغتمام وكُلفة مُقاساة الاهتمام ، من غيرأن يكون عليه فى ذاك شىء . فالحسـدُ أغتمامٌ والغَدْرُ لؤمٌ . وقال بعضُ الحكماء : الحسدُ خُلقٌ دَنِىء ، ومِن دَناءته أنه يبدأُ بالأقربِ فالأقرب . وزعموا أنه لم يَغدر غادِرٌ قطّ إلاّ لِصِغَر همّته عن الوَفاء وخمولِ قَدرِه عن احتمالِ المكاره فى جنب نَيلِ المكارم

وبقدرِ ما ذمّت الحكماء *هذه الأخلاق الأربعة* فـكذلك حمِدتْ أضدادَها من الأخلاق ، فأكثرتْ فى تفضيلِها *الأقاويل وضربَت فيها الأمثالَ ، وزعمتْ أنها أصلٌ لكلّ كَرَم وجِماعٌ لكلّ خَير ، وأنّ بها تُنالُ جِسام الأمور *فى الدُنيا والدينِ* . فاجعل هذه الأخلاق إمَامًا لك ومِثالاً بين

---

(١) < قط > ء — (٦) بالبطش ء ، العبارة غيرمستقيمة ولعل صوابها : « والمقدرة والبسطة على البطش » — (٧) [مثل] ء — (٩) الشر ء — (١٠) [ثقل] ء — (١٥) من هذه الأخلاق الثلاثة ⵓ — (١٦) الأوائل ء — (١٨) فى الدين والدنيا ء

عينيك وَرُض عليها نفسَك وحَكِّمها فى أمرك ، تَفُزْ بالرّاحة فى *العاجل والكرامة فى الآجل

والصّبرُ صبران ، فأعلاهما أن تَصبرَ *على ما ترجُو فيه الغُنْمَ فى العاقبة . والحِلم حِلمان ، فأشرفُهما حِلمُك عمّن هُوَ دونَك . والصِدقُ صِدقان ، *أعظمُهما صِدقُك فيما يَضرُّك . والوَفاء وفاءان ، *أسناهُما وفاؤُك لِمَن لا ترجوه ولا تخافه . فإنّ مَن عُرِفَ بالصِدق صار الناسُ له أتباعاً ، ومن نُسِب إلى الحِلم ألبس ثَوبَ الوقار والهيبةِ وأُبَّهَـةِ الجلالة ، ومن عُرِف بالوفاء *استنامت إلى الثقة به الجماعاتُ* ، ومَن *استعزّ بالصَبر نال جسيماتِ الأمور . ولَعَمرى ما *غَلِطَت الحكماء حينَ سَمَّتْهـا أركانَ الدّين والدُنيا . فالصِدقُ والوفاء *تَوأمان والصبرُ والحِلمُ *توأمان ، *فبِهنّ تمامُ كلّ دين وصلاحُ كلّ دنيا ، وأضدادُهنّ سَبَبُ كل فُرقةٍ وأصلُ كلّ فسادٍ

واحذرْ خَصلةً رأيتُ الناسَ قد استهانوا بها وضيّعوا النظرَ فيها ، مع اشتمالها على الفساد وقدحِها البغضاء فى القُلوب والعداوةَ بين الأوِدّاء : المُفاخرةَ بالأنساب . فإنّه لم يَغلط فيها عاقلٌ قطُّ ، مع اجتماعِ *الإنسِ جميعاً على الصُورة وإقرارِهم جميعاً بتفرُّق الأمور المحمودة *<والمذمومة> ، من الجمالِ والدَمامة واللؤمِ والكَرَم والجُبنِ والشجاعةِ فى كلّ حين ، وانتقالها من أُمّة إلى أُمّة ، ووجودِ كلّ محمودٍ ومذموم فى أهل كلّ جنس من الآدميّين .

---

(٢) العاجل <والآجل> ت — (٣) فى كل ما ترجو ى — (٤) فأعظمهما ى — (٥) أسناهما ت — (٧ - ٨) استقامت بالثقة به الجماعة ت — (٨) استعان ى — (٩) غلطت <فيها> ى — (١٠) توأم ت (مرتين) — (١٠) منهن ى — (١٤) الألسن ى — (١٥) <والمذمومة> ، أضفنا : [ ] ت ى

وهـذا غيرُ مدفوعٍ عند الجميع . فلا (١)تجعلنّ لهُ من عَقلِك نصيباً ولا من لسانك حَظًّا ، (٢)تَسْلَمْ بذلك على الناس أجمعين مع السَّلامة فى الدين

(*)وأعلم أنّك موسومٌ بسِيما مَن قارنتَ ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحبتَ ، فتحرَّز من دُخلاء (٤)السُّوء ومجالسـةِ أهلِ الرِيَب . وقد جَرَتْ لك فى ذلك الأمثال وسُطِّرت (٥)لك فيه الأقاويل ، فقالوا : المرءُ حيثُ يجعلُ نفسَـه . وقالوا : يُظَنُّ بالمرء (٦)ما يُظَنُّ بقرينه . وقالوا : المرءُ (٦)بشِـكله والمرءُ بأليفه . ولن تقدرَ على التحرُّز من (٧)جماعة الناس ، ولـكنْ أَقِلِّ المؤانسـةَ إلاّ بأهل البَراءة من كلّ دَنَسٍ

وأعلم أنّ المرءَ بقدرِ ما يَسـبِقُ إليه يُعرَف وبالمستفيض مِن أفعاله يوصف ، وإن كان بينَ ذلك كثيرٌ من (١٠)خلافِه ألغاهُ الناس وحكموا عليـه بالغالب من أمره . فأجهدْ أن يكونَ أغلبُ الأشياء (١١)على أفاعيلك ما تَحمَدُه العوامُّ ولا تَذُمُّه الجماعاتُ ، فإنّ ذلك يُعَفِّى على كلّ خَلَلٍ إنْ كان . فبادرْ أَلسنَةَ النَّاس فاشغلها بمحاسنك فإنّهم إلى كلّ (١٢)شىء سِراعٌ . واستظهِرْ على مَن دُونك بالتفضُّل (١٤)وعلى نُظَرائك بالإنصاف وعلى (١٥)مَن فوقَك بالإجلال ، تأخذْ بوثائقِ الأمور وأزمّةِ التَدبير

وأعلم أنّ كثرةَ العِتاب سَبَبٌ للقطيعة واطِّراحَه كلَّه دليلٌ على قلّةِ

---

(١) تجعل د — (٢) فتسلم د — (٤) السوء <وأظهر> مجانبة د — (٥) [لك] م — (٦) ما ظن ه — بشكيله د — (٧) جماعات د ، [جماعة] م — (١٠) أفعاله د — (١١) عليك أفاعيلك كلها ه ، على أفعالك ما م — (١٢) شىء م — (١٤) [وعلى نظرائك] ه — <كل> من م

(*) (٣ - ١٥) واعلم ... التدبير : رواية م (٧)

الا كتراث بأمرِ الصديق ، فكُنْ فيه بينَ أمرين : عاتِبْه فيما تشتركان فى نفعِه وضُرّه وذلك فى الهَنات ، وتَجافَ له عن بعضِ غَفَلاتِه تَسْلَمْ لك ناحيتُه . وبحسَبِ ذلك فكُنْ فى زيارته ، فإنّ الإلحاحَ فى الزيارة يَذهبُ بالبهاء وربّما أورثَ الملالة ، وطولُ الهِجرانِ يُعقِبُ الجَفوةَ ويَحُلُّ عقدةَ الإخاء ويجعلُه صاحبُه مَدرجةً للقطيعة . وقد قال الشاعر :

إذا ما شئتَ أن تَسلَى حبيباً فأكثِرْ دونَه عَدَدَ الليالى
فما يُسلِي حبيبَك مثلُ نأيٍ ولا يُبلِي جديدَك كابتذالِ

واقتصدْ فى مِزاحك ، فإنّ الإفراطَ فيه يَذهبُ بالبهاء ويُجرِّئُ عليك أهلَ الدَناءة ، وإنّ التقصير فيه يقبضُ عنك المؤانسين . فإن مزحتَ فلا تمزح بالذى يسوء مُعاشريك

وأنا أوصيك بخُلُقٍ قلّ مَن رأيتُه يتخلّقُ به ، وذاك أنّ تحمّلَه شديد ومُرتقاه صَعب ، وبحسَبِ ذلك يورِث الشرفَ وحميدَ الذِكر : ألاّ يُحدِثَ لك انحطاطُ مَن حطّت الدنيا من إخوانك استهانةً به ولا لحقِّه إضاعةً ولما كنتَ تعلمُ من قَدْره استصغاراً ، بل إنْ زدتَه قليلاً كان أشرفَ لك وأعطفَ للقُلوب عليك . ولا يُحدِث لك ارتفاعُ من رَفَعَت الدنيا منهم تذَلُّلاً وإيثاراً له على نُظَرائه فى الحفظ والإكرام ، بل لو انقبضتَ عنهُ كان مادحُك أكثرَ من ذامِّك وكانَ هُوَ أولَى بالتعطُّف عليك . إلاّ أن يكونَ مُسلَّطاً تخافُ شذاتَه

(١) إلا من ꝺ — (٢) الهينات ꝺ — (٤) الملال ى — (٥) درجة ꝺ — (٧) فما يسلى . . . كابتذال :

وزر غبا إذا أحببت خلا فتحظى بالوداد مع اتصال ى

(٨) واقصد ى — (٩) عنه ى — (١٠) إلا بالذى يسر ى — (١٣) [به] ى — (١٤) تعرف ى — [قليلا] ى — [لك] ى — (١٧) شذاه ꝺ

ومَعَرَّته وترجو عندَه جَرَّ منفعةٍ لصديق أو دَفعَ مضرَّةٍ عنه أو كَبتاً لعدوٍّ و إنزالَ هوانٍ به . فإنّ السُلطانَ وخُيَلاءه وزهوَه يُحتَمَلُ فيه ما لا يجوزُ فى غيره ويُعذَرُ فيه ما لا يُعذَرُ فى سواه

*وأعلم أنّ نشرَ محاسِنِك لا يليقُ بك ولا يُقبَلُ فيك ، إلاّ إذا كان القولُ لها على ألسُنِ أهلِ المُروءاتِ وذَوى الصِدق والوفاء ، ومَن ينجعُ قولُه فى القُلوب ، ممّن يُستنامُ إلى قوله ويُصدَّقُ خبرُه ، وممّن إن قال صَدَق أو مَدَح اقتصد ، يثنى بقدر البلاء ، فإنّ إسرافَ الثَناء على قدر النِعمة يولِّد فى القلوب التكذيب ويَدُلُّ على طلب *التزايُد . *فأمّا ثَناء المادحين لك فى وجهك ، فإنّما تلك أسواق* أقاموها للأرباح وساهَلوك فى المُبايعة ، ولم يكنْ فى الثَناء عليهم كُلفة ، لكسادِ أقاويلهم عند الناس . أولئك الصادّون عن طُرُق المكارم والمثبِّطون عن ابتناء المعالى . فارْتَدْ لِنعَمِك مَغرِسًا تنمو فيه فروعُها وتزكو ثمرتُها ، لا تذهبْ نفقتُك ضَياعاً ، إمّا لعاجلٍ تُقدِّمُه أو لآجلِ ثناءٍ تَنتفعُ به*

ولن تَعْدَمَ أن يَفجأك فى بعض أحوالِك حقوقٌ تبهظك *وأحوال تَفدحُك وأمورٌ كلُّها تتقسَّمُ *عِنايتَك وفى التثبُّت فى مثلها تُعرَفُ فضيلتُك . *فلا تستقبلْها بالتضجُّع *وتَغبين الرأى ، *وأبدأ منها بأعظمِها مَنفعةً وأشدِّها خوفَ ضَرَرٍ ، وَكِلْ ما أعجزَك إلى الكُفاة وأعتذِر مِن تقصيرٍ إن كان ، *فإنّ الاعتذار يكسِرُ حُمّى* اللائمة ويردَع شَذاةَ الشِرّة . ثمّ تلافَ بعدَ *انكسار ذلك *عنك ما فاتك

(٤ - ١٣) [واعلم ... تنتفع به] د — (٨) التزايد ، صححنا : المزايد ض — فأثناء ض — (١٤) وأشغال د — (١٥) عليك د — (١٦) ولا ض — وتغير ض — فابد د — (١٨) فان العذر يكسر حيا د — (١٩) الانكساف ض — [عنك ما فاتك] د

وأجهد الجهدَ كله أن تكون مخارجُ الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً موصولة *لأصحابها ببشرك وطلاقةِ وَجهك ، فقد زعمت الحكماء أنّ القليلَ مع طلاقة الوجه أوقعُ بقلوب ذوى المروءات مِن الكثير مع العبوس والانقباض . *وقد قال بعضُ الحكماء غايةُ الأحرار أن يَلقَوا ما يحبّون ويُحرَموا أحبُّ إليهم مِن أن يَلقَوا ما يَكرهون ويُعطَوا* . *وما أبعدُوا من الحقّ

ولا يَدعُونّك كُفرُ كافرٍ لبعضِ نِعَمِك ممّن آثرَ هواهُ على دينه ومروءته *أوغَدر غادرٍ تصنّع لك وختَلَك عن مالِك ، أن تَزهد فى الإنعام وتُسيء بثقاتِك الظّنونَ . فإنّ هذا موضعٌ يجدُ الشيطانُ فى مثلِه الذّريعة إلى استفساد *الطبائع وتعطيل المكارم

وأعلمْ أنّ استصغارَك نعمَك *يُكبِرها عند ذوى العُقول وسَترك لها نَشرٌ لها عِندَهم . فأَنشرْها بسَترِها *وكبِّرْها باستِصْغارِها

وأعلم أنّ من *الفعل أفاعيل وإنْ عَظُمت منافعُها ومنافعُ أضدادها *فلإيثارها فضيلةٌ على كلّ حال . فأجعَل صمتَك أكثرَ مِن كلامِك ، فإنّه أدلُّ على حكمتك . وأجعلْ عَفوَك أكثر من عُقوبتك ، فإنّ ذلك أدلُّ على كرمِك . ولا تفْرِطنَّ فيه كلّ الإفراط حتى تطرحَ الكلام فى موضعه والتأديبَ فى أوانه

وأعلمْ أنّ لكلّ امرئٍ سيدًا من عملِه ساهَلَتْه فيه نفسُه وسَلِس له فيه هواه . فتحفّظ ذلك من نفسك وتقاضَها الزّيادة فيه ورُضها على تَشميره والمواظبة عليه(*)

(٢) لاصحابك ى — (٤-٥) [وقد قال ... ويعطوا] ى — (٥) [وما أبعدوا من الحق] ⊃ — (٧) او عذره ⊃ — (٩) الصنائع ى — (١٠) يكثرها ⊃ (١١) وكثرها ⊃ — (١٢) الافاعيل أفاعيل ى — فالايثار لها ى

(*) يتلو فى ⊃ الفصل المشار إليه فى تعليقة ص ٢٦

وأحذر الحذرَ كلَّه الاغترارَ بأمور ثلاثة ، فإنَّ من عَطب بها كثير وتَلافيها صعبٌ شديد : أحدُها أن *لا تُوَلِّيَ جسامَ تصرّفك *وتُقلِّدَ مُهمَّ أمورِك وَوَثائقَ تدبيرك *إلا امرءًا صلاحُه موصولٌ بصلاحك *وبقاء النعمة عليك هو بقاء النعمة عليه . *وأن لا تأنس أو تغترّ بمَنْ تعلمُ أنَّ بصلاحك فساده وبارتفاعك انحطاطه وبسلامتك عَطَبَه ، فإنَّ من كان هكذا فأنت مَالِكُ مَوْتِه ، فبِحَسَبِ ذلك فليكنْ عِندك . *وأنْ تجعلَ مالَك كله فى عُقْدةٍ واحدة أو حيّزٍ واحدٍ *أو وجهٍ منفردٍ إن اجتاحتْهُ جائحةٌ أو نابتْهُ نائبة بتَّ حسيراً . وقد قال بعضُ الحكماء : فرِّقوا المنية واطلبوا الأرباح بكل شِعب

*وأعلم أنّه ليسَ من الأخلاق التى ذَمَّتها الحُكَماء خلقٌ إلّا وقد يَنفعُ فى بعض الحالات *ويُرَدُّ به شكلُهُ *ويقامُ بإزاء مثله ويدافَع به نظيره . *إنَّك ستُمْنَى بصُحبة السُّلطان الحازم العادل وبصحبة السُّلطان الأخرق الجَهول الغَشوم ، فالحازمُ العادل يَسوسه لك الأدبُ والنُصح والأخرقُ يسوسهُ لك الحيلةُ والرِفق . العادلُ يَعضُدُك منه ثلاث وتصبرُ نفسُه لكَ على ثلاث ، فاللواتى يعضُدنك : تسليطُ العدل وإنفاذُ الحكومة — وفى ذلك صلاحُ الرعيَّة — وإثابة المحسنين الذين إثابتهم تحصينُ البَيضة والسُبُل ، والعفوُ ما بُلغَ به الاستصلاحُ واكتُفِيَ به من *البسط . واللواتى تصبرُ نفسه لك عليهن الهوى

---

(٢) [لا] ء — تقليدهم ض — (٣) الى من ء — (٣-٤) وبقاء النعمة عليه هو بقاء النعمة عليك ء — (٤) وان تأنس ء — (٦) وان تجعل ، صححنا : أو أن تجعل ض ء — (٧) أو [وجه منفرد] <و> ان ض — (١٠) واعلموا ض — (١١) ويرديه شكله ويقاوم ض — (١٢-ص ٣٥ ، ٢) [انك ستمنى ... النصحاء] ء — (١٧) لعل الصواب : البطش ؟

*< . . . . > إلى ما وافق الرأى وأمضى الرأى إلّا بعـد التثبُّت حتى تعاونه عليه النُّصحاء

*ولـكنى أُوصيك برياضةِ نفسك حتى تُذلِّلها على الأمور المحمودة ، فإنّ *كلّ أمرٍ ممدوح *هو مما تَستثقلُ النُفوسُ ، *ومما تسرُّ به وتنقلبُ إليه الأخلاق المذمومة . فإن أهملتها و إياها غلبت *عليك لأنّها فيها طبيعة مركّبة* وجبلّة مفطورة . فلتكُن المساهَلةُ فى أخلاقك أغلبَ عليك من المعاسرة والحلمُ أولى بك من العجلة والصبرُ الحاكمَ عليك دون الجزَع والعفو أسبقَ إليك من المجازاةِ بالذُنوب والمكافأةِ بالسوء ، *وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة فلتكن محموداتها غالبةً على أفعالك مُحكَمةً فى أمورك*. فإنك إن ضبطتَ *ذلك وقوّمتَ عليك نفسَك عشتَ رَخِىَّ البال قليلَ *الهم كثيرَ الصديق قليلَ العدوّ *سليمَ الدين نقىَّ العِرض محمود الفِعال* جميلَ الأحدُوثة فى حياتك و بعـد وفاتك ، وكنتَ بموضع *الرجاء أن يصلَ الله لك *السلامة الآجلة بالنّعمة *العاجلة

أسألُ الله المبتدئَ بكلّ نعمة والمولّىَ لكل إحسان أن يُصلّىَ على محمدٍ خيرته من خَلقه وصَفْوته من بَرِيته ، وأن *يتمّ عليك نعمته ويَشفَعَ لك

(١) < ... ... > : سقط فى الأصـل — (٣) ولـكن ى — (٤) كان امر د — هو ما د — [ومما تسر ... المذمومة] د — (٥) عليك لأ فيها طبيعة [مركبة] د — (٨-٩) [وكذلك سائر ... فى أمورك] د — (١٠) [ذلك ... عليك] د — الهموم د — (١١) [سليم ... الفعال] د — (١٢) ترجو ى — (١٣) الـكرامة ى — العاجلة < إن شاء الله عز وجل > ى — (١٥) يتم ى —

ما خوّلك من (١) نعمته بالنعمة التى يؤمَنُ معها الزوالُ فى جِواره ومُرافقة أنبيائه ، (٢) والسلام عليك ورحمةُ الله(*)

---

(١) نعمه ى — (٢) صلى الله عليهم أجمعين ى

(*) تمت الرسالة فى الأخلاق المحمودة والمذمومة بعون الله ومنه والله الموفق للصواب والحمد لله أولا وآخرا وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه يتلو هذه الرسالة إن شاء الله تعالى « كتاب كتمان السر وحفظ اللسان » من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضا والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته ى ، تمت الرسالة فى كتمان السر وحفظ اللسان (ا) من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله والله المحمود على ذلك كثيرا برحمته ى

٢

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعدُ ، فإنّي تصفّحتُ أخلاقَك وتدبّرتُ أعراقَك وتأمّلتُ شِيَمَك ، وَوَزَنتُكَ فعرَفتُ مقدارَك وقوّمتُك فعلمتُ قيمتَك ، فوجدتُك قد ناهزتَ الكمال وأوفيتَ على التمام وتوقّلتَ في دَرَج الفضائل ، وكِدتَ تكونُ مُنقطِع القرين وقاربتَ أن تُلفَى عديمَ النظير ، لا يطمع فاضلٌ أن يَفوتَك ولا يأنف شريفٌ أن يُقصِّر دونَك ولا يخشع عالمٌ أن يأخذ عنك . ووجدتُك في خِلال ذلك على سَبيل تضييعٍ وإهمالٍ لأمرين هما القُطبُ الذي عليه مَدارُ الفضائل ، فكنتَ أحقّ بالعَذل وأقمنَ بالتأنيب ، ممّن لم يَسبِق شأوَك ولم يَتسنّم رُتبتَك ، لأنّه ليس مَلومًا على تضييع القليل مَن قد أضاع الكثير ولا يَهتمّ بإصلاح يومه وتقويم ساعته مَن قد استحوذَ الفسادُ على دَهره ولا يُحاسَبُ على الزّلّة الواحدة مَن لا يُعَدُّ منه الزَّلَلُ والعِثار ولا يُنكَرُ المنكَرُ على مَن ليس من أهل المعروف ، لأنّ المنكر إذا كثُر صار معروفًا ، وإذا صار المنكَرُ معروفًا صار المعروفُ منكَرًا . وكيف يُعجَبُ ممّن أمرُه كلّه عَجَب . وإنّما الإنكارُ والتعجّب ممّن خرَج عن مَجرَى العادة وفارق السُّنّة والسَّجيّة ، كما قال الأوّل : خالِفْ تُذكَرْ ، وقيل :

---

(١٢) ولا يسم اصلاح ط — (١٣) يعدم ط

الكاملُ مَن عُدّت سَقَطاتُه ، وقيل : مَن استوى يَوْماهُ فهو مغبون ومَن كان يومُه خيراً من غَدِه فهو مفتون ومَن كان غَدُه خيراً من يومه فذلك السعيدُ المغبوط . وفى هذا المعنى قال الشاعر :

رأيتُكَ أمْسِ خيرَ بنى مَعَدٍّ وأنت اليومَ خيرٌ منك أمْسِ
وأنت غداً تَزِيدُ الضِعفَ خيراً كذاكَ تَزِيدُ سادةُ عبدِ شمسِ

وقال آخَرُ فى مَعْنٍ :

أنت امرؤٌ همُّكَ المعالى ودَلْوُ معروفِكَ الرَبيعُ
وأنت مِن وائلٍ صَميمٌ كالقلبِ تَحْنِى به الضُلوعُ
فى كلِّ عامٍ تَزِيدُ خيراً يُشِيعُه عنك مَن يُشِيعُ

والأمرانِ اللذانِ نَقِمتَهما عليك : وَضعُ القَولِ فى غيرِ موضعه وإضاعةُ السِرّ بإذاعته . وليس الخطرُ فيما أسومُك وأحاولُ حَمْلَكَ عليه بسهلٍ ولا يَسيرٍ . وكيف وأنا لا أعرِفُ فى دَهْرِى — على كثيرِ عَدَدِ أهْلِه — رجلًا واحداً مِمَّن يَنتحِلُ الخاصَّة ويُنسبُ إلى العِلْيَة ويَطلبُ الرياسة ويَخطُب السيادة ويتحلّى بالأدب ويُديم التَخانة والزَمانة والحِلمَ والفخامة ، أرضى ضَبْطَه لِلسانِه وأحمَدُ حِياطَتَه لسرِّه . وذلك أنَّه لا شىءَ أصعبُ مِن مُكايدَة الطبائع ومُغالَبة الأهواء ، فإنَّ الدَولةَ لم تزَلْ للهوَى على الرأى طولَ الدَهرِ ، والهوَى هو الداعِيَةُ إلى إذاعَة السرّ وإطلاق اللسان بفَضلِ القول . وإنّما سُمِّىَ العقلُ عقلاً وحِجْرًا — قال الله تعالى هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ — لأنّه يَزُمُّ اللسانَ ويَخطِمُه ويَشكُلُه ويَزِينه ويقيّد الفَضلَ ويَعقِلُه عن أنْ

---

(١٨) سورة الفجر : ٥

يَمضِى فُرُطاً فى سَبيل الجهل والخَطإ والمضرّة ، كما يُعقَلُ البعيرُ ويُحجَرُ على اليتيم . وإنّما اللسانُ تَرجُمان للقلب والقلبُ خِزانةٌ مُسْـتحفَظةٌ للخواطر والأسْرار وكُلّ ما يَعيه ذلك عن الحواسّ من خيرٍ وشرّ وما تُولّده الشهوات والأهواء وتنتجُه الحِـكمةُ والعِلم . ومِن شأنِ الصَّـدر — على أنّه ليس وِعاءً للأجرام ، وإنّما يَعى بقدرة الله لا يَعرفُ العبادُ كيف هى — أن يَضيقَ بمـا فيه ويستثقلَ ما حمل منه ، فيَستريحَ إلى نَبْـذه ويَلَذَّ إلقاءه على اللسان ، ثم لا يَـكادُ أن يَشفيَه أن يُخاطِبَ به نفسَه فى خَلَوَاته حتّى يُفضىَ به إلى غيره مِمّن لا يَرعاه ولا يَحوطُه ، كلّ ذلك ما دامَ الهَوَى مُسْـتَولياً على اللسان واستعمل فضول النظر فدَعَتْ إلى فُضول القول

فإذا قَهَرَ الرأىُ الهَوَى فاسْتَوْلَى على اللسان مَنعَه مِن تلكَ العادة وردَّه عن تلكَ الدُّرْبَة وجَشَّمه مَؤونةَ الصبر على ستر الحِلم والحِـكمة . ولا شىءَ أعجبُ مِن أنّ المنطِقَ إحدى مَواهبِ اللهِ العِظام ونِعَمِه الجِسام ، وأنّ صاحِبَها مَسؤولٌ عنها ومحاسَبٌ على ما خُوِّل منها ، أوجبَ اللهُ عليه استعمالَهَا فى ذِكره وطاعتِـه والقِيامِ بقِسْـطه وحُجّتِه ووَضعَها مواضِـعَ النَفعِ فى الدينِ والدُّنيا والإنفاقَ منهـا بالمعروفِ لفظةً لفظةً وصَرْفَها عن أضدادِها . فلم يَرْضَ الإنسانُ أنْ عطّلَها عمّا خُلِقتْ له ممّا ينفعُه حتّى استعملها فى ضدّ ذلك مِمّا يضرُّه ، فاجتمعَ عليه الإثمـانِ اللّذان اجتمعا على صاحبِ المـال الذى كنَزَه ومَنَعه مِن حقّه ، فوجبَ عليه إثمُ المنع وإن كان لم يَصرِفْه فى معصيَة ، ثم صرفَه فى أبوابِ الباطل والفِسق ، فوَجَب عليه إثمُ الإنفاقِ مِنها . وهـذه غايةُ الغَبنِ والخُسران ، نَعوذُ بالله مِنها

فاللسانُ أداةٌ مُستَعمَلة لا حمدَ له ولا ذمَّ عليه، وإنما الحمدُ للحِلْمِ واللومُ على الجهل، فالحلمُ هو الاسمُ الجامعُ لكلّ فَضل وهو سُلطان العقلِ القامعُ لِلهوَى. فليسَ قَمْعُ الغضَب وتسكينُ قُوّة *الشرّ وإسقاطُ طائرِ الخُرق بأحقَّ بهذا الاسم ولا أوْلَى بهذا الرَسم *من قمعِ فَرطِ الرِضا وغلبةِ الشَهوَات والمنعِ من سُوءِ الفَرَح والبَطَر ومن سُوءِ الجَزَع والهَلع وسُرعةِ الحمد والذَمّ وسُوءِ الطبع والجَشَع وسُوءِ مُناهَزةِ الفُرصة *وفرط الحِرصِ على الطَّلِبة وشِدَّة الحنين والرِقّة وكثرةِ الشكوَى والأسَف وقربِ وقتِ الرِضا من وقتِ السخط ووقتِ السخط مِن وقت الرضا ومِن اتِّفاقِ حَرَكاتِ اللسان والبَدَن على غير وَزْنٍ معلوم ولا تَقْدير موصوف وفى غير نَفعٍ ولا جَدَى

وأعلم يقيناً أنّ الصمتَ سَرْمَدًا أبداً أسْهَلُ مَراماً — على ما فيه من المشقّة — من إطلاقِ اللسانِ بالقَوْل على جهةِ التحصيل والتَّمييز والقَصْدِ للصَواب، لِما قدّمنا ذكرَه من عِلّة مجاذَبة الطباع ولأنّ من طَبعِ الإنسان محبَّةَ الإخبارِ والأسْتِخْبار. وبهذه الجِبِلَّة التى جُبِلَ عليها الناس *نُقِلت الأخبارُ عن الماضين إلى الباقين <و> عَن الغائب إلى الشاهد، وأحبَّ الناسُ أن *يُنقَل عنهم ونَقَشوا خَواطِرَهم فى الصُخور وأحتالوا لِنَشر كلامهم بِصُنوفِ الحِيَل. وبذلك ثبَتَت حجّةُ الله عَلَى مَن لم يُشاهِدْ مخارجَ الأنبياء ولم يَحضُرْ آياتِ الرَسول. وقامَ مَجىءُ الأخبارِ عن غيرِ تشاعرٍ ولا تَواطُىءٍ مَقام العِيان، وعُرِفَت البُلدانُ والأقطارُ والأمم والتجاراتُ والتَدبيراتُ

(٣) الشر ؟ — (٤) مع ؟ — (٧) فرض ؟ — (١٦) يعقل ؟

والعَلامات ، وصار ما ينقُلُه النّاسُ بعضُهم عَن بعضٍ ذريعةً إلى قَبولِ الأخبارِ عن الرُسُل وسُلّمًا إلى التصديق وعَوْنًا على الرضا بالتقليد . ولولا حلاوةُ الإخبارِ والاستخبار عندَ الناس لَما انتقلت الأخبار وحلّت هذا المَحلّ . ولكنّ الله عزّ وجلّ حبّبَها إليهم لهذا السّبب ، كما جعَل عِشقَ النِساء داعيةً للجماع ولذّة الجماعِ سبيلا للنَسل والرِقّة على الوَلَدِ عَوْنًا على التَربِيَة والحَضَانة وبهما كانَ النُشوء والنَماء ، وحُبَّ الطَعام والشراب سبباً للغذاء والغذاء سبباً للبقاء وعمارةِ الدُنيا

فعَسُر على الإنسانِ الكِتمانُ لإيثارِ هذه الشهوة والانقيادِ لهذه الطبيعة ، وكانت مزاولةُ الجبالِ الراسياتِ عن قواعدِها أسهلَ مِن مجاذَبة الطبائع . فاعتراه الكَرْبُ لكِتمانِ السِرّ وغَشِيَه لذلك سُقمٌ وكَمَدٌ يُحسّ له في سُوَيداء قلبه بمثلِ دَبيبِ النَمل وحِكّة الجرَب ومثل لَسْع الدَبْر ووَخْزِ الأشافيّ ، على قَدْر اختلافِ مقاديرِ الحُلوم والرَزانة والخِفّة . فإذا باح بسرّه فكأنّه أُنْشِطَ من عِقالٍ . ولذلك قيل : الصَدرُ إذا نفَثَ بَرَأَ ، مثلاً مَضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بُدّ من شكوى إذا لم يكن صبر *

وليس قولُنا : طُبِعَ الإنسانُ على حبِّ الإخبارِ والاستِخبار ، حجةً له على الله ، لأنّه طُبع على حبِّ النِساء ومُنِع الزِنا وحُبِّبَ إليه الطعامُ ومُنِع من الحرام ، وكذلك حُبِّب إليه أنْ يُخبِر بالحقِّ النافع ويَسْتخبِرَ عنه ، وجعلتْ فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختارَ الهَوَى على الرأى

(١١) به ح

ومِمّا يؤكِّد هذا المعنى فى كَرْبِ الكِتمانِ وصُعوبته على العُقلاء فَضْلاً عن غيرهم ما رَواه عن بعضِ فُقهائِهم أنّه كان يحملُ أخباراً مستورةً لا يحتملُها العوامُّ ، فضاق صَدرُه بها ، فكان يبرُزُ إلى العَرَى فيحتفِرُ بها حَفيرةً يُودِعُها دَنًّا ثم ينكبُّ على ذلك الدَنِّ فيحدِّثه بما سَمِع فيُروِّح عن قلبه ويَرَى أن قد نقَل سِرَّه من وعاء إلى وِعاء

وكان الأعمشُ سَيِّئَ الخُلُق غَلِقاً ، وكان أصحابُ الحديثِ يُضْجِرونَه ويَسُومونَه نَشْرَ ما يحبُّ طَيَّه عنهم وتكرارَ ما يحدِّثُهم به ويتعنّتونه ، فيحلفُ لا يحدِّثُهم الشهرَ والأكثرَ والأقلَّ . فإذا فَعَل ذلك ضاق صدرُه بما فيه وتطلَّعت الأخبارُ إلى الخُروج منه ، فيُقبلُ على شاةٍ كانت له فى منزله ، فيحدِّثُها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعضُ أصحابِ الحديث يقول : ليت أنّى كنتُ شاةَ الأعمش

وشكا هِشامُ بنُ عبدِ الملك ما يجدُ من فقد الأنيسِ المأمون على سرِّه ، فقال : أكلتُ الحُلو والحامض حتى ما أجِدُ لهما طعماً ، وأتيتُ النّساء حتّى ما أبالى امرأةً لقِيتُ أم حائطاً ، فما بَقيتْ لى لذّةٌ إلاّ وجودَ أخٍ أضعُ بينى وبينه مؤونة التحفُّظ

وقال مُعاوية لعَمْرِو بنِ العاص : ما اللذّة ؟ قال : تأمرُ شبابَ قريشٍ أن يخرُجوا عنّا ، ففعل . فقال : اللذّةُ طرحُ المُروءة . وقد صَدَق عَمْرو ، ما تكونُ الزَمانةُ والوَقارُ إلاّ بحَملٍ على النَفس شديد ورياضةٍ مُتعِبة . وقال بعض الشُعراء :

---

(٢) كذا فى الأصل — (٣) لعل الصواب البرارى

أَلَمْ تَرَ أَنَّ وُشَاةَ الرِّجَا   لِ لا يَدَعُونَ أَدِيمًا صَحِيحا
فلا تُفْشِ سِرَّكَ إلاّ إليـ   ـكَ فإنّ لكلّ نصيحٍ نَصيحا

والسرّ — أبقاكَ الله — إذا تجاوزَ صَدرَ صاحبه وأفاتَ من لِسانه إلى أُذُن واحدة ، فليس حينئذٍ بسرّ بل ذاكَ أَوْلَى بالإذاعة ومفتاحُ الشرّ والشُهرة . وإنّما بينَه وبينَ أن يَشيعَ ويَستطيرَ أن يُدفعَ إلى أُذُن ثانية ، وهو مع قِلّة المأمونين عليه — وكرب الكِتمان — حرِىٌّ بالانتقال إليها فى طَرْفة عين . وصَدرُ صاحبِ الأُذُن الثانية أَضْيَق وهو إلى إفشائه أسرع وبه أسْخَى وفى الحديثِ به أعذر والحجّة عنه أدْحَض ، ثمّ هكذا منزلةُ الثالثِ من الثانى والرابع من الثالث أبدًا إلى حيثُ انتهَى . هـذا أيضاً إذا استعْهد المحدِّثَ واستكتم وكان عاقلا حليما وناصحاً وادًّا ، فكيف إذا أُخْبِر ولَم يُؤمر بالكِتمان وكانَ ممّنْ يَمشى بالنمائم ويحبُّ إفشاء المعايب ، وكان ممن يَنْطوى على غِشّ أو شحناء أو كان له فى إظهاره "اجتلاب نفعٍ أو دفعُ ضرر . فاللوم إذ ذاكَ على صاحبِ السرّ أوجب "وعمّن أفضى به إليه أدلّ" ، لأنّه كانَ مالكا لسرّه فأطلقَ عِقالَه وفتح أقفاله وسَرّحه ، فأفلتَ من قَيْده ووِثاقه وصار هو العبدُ القنُّ المملوكُ لمن ائتمنَه على سرّه وملّكه رقّ رقبته . فإن شاء أحسنَ مِلكتَه بحفظ ذلك السرّ فجزّ ناصيتَه وجعله رَهينةً ليومٍ "عتبه عليه . وقلّ مَن يُحسنُ المِلكة ويحرسُ الحرّيّة أو يضبطُ نفسَه ، فإنّه ربّما لم يُخرِجْه غِشًّا فأخرجَه سُخفاً وضَعفاً . وإن أساءَ المِلكةَ وختَرَ الأمانة "أطلقَ السرّ واسْتَرْعاه مَن هو أشدّ له إضاعةً فسَفَكَ الدَمَ وأزالَ النِعم وكشفَ

(١٢) اختلاف ڡ — (١٣) كذا ڡ — (١٦) لعله : غضبه — (١٨) فاطلق ڡ

العَورة وفرّق بين الجميع ، وإن كان المُضيع لسرّه ألوَمَ . قال الشاعر :

إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرّ نفسه فصدرُ الّذى يُستودَعُ السرّ أضيقُ

فمَنْ أسوأُ حالاً وأخسرُ مكاناً وأبعدُ من الحزم ممّن كان حُرًّا مالكاً لِنَفسه فصيَّر نفسَه عبداً مملوكاً لغيره مختاراً للرقّ من غير أسْر ولا قَسْر . والعبيدُ لم يَصبِرُوا على الرقّ إلا بذُلّ الأسْرِ والسِّبَاء . ومن كان سِرُّه مَصوناً فى قلبه ، يُطلبُ إليه فى الحديثِ به فأخرجَه عن يده ، صار هو الطالب الراغب إلى من لا يُوجبُ له طاعة ولا يُفكر له فى عاقِبة ولا يتحرّز له عصبية . وكلّما كانت إذاعَتُه لأسراره أكثرَ كانَ عَدَدُ مَواليه أكثر وشقاؤه بخدمتهم أدْوَم . فإذا كان أصلُ السرّ معلوما عند عِدّة أو أقلّ من العدّة فما أعسرَ استِتارَه ، غير أنّه لا لَوْمَ على صاحبِ الجناية فيه ، إذ كان ليس هو الذى أفشاه ولا مِنْ قِبَلِه عُلِم

ولو أنّ أوْزَنَ الناس حِلماً مَلَكَ لِسانه وحصّن سرّه وقلّل لفظَه ، ما قدر على أن يملكَ لحظَ عينيه وسَحْنَة وجهِه وتغيُّر لونه وتبسُّمَه أو قُطوبَه ، عندما يجرى به من ذِكر ذلك السرّ أو خَطَر ببِاله منه ، فيبدُو فى وَجْهِه ومخايلِه إذا عَرَضَ ذِكره أو سنح له نظيرٌ أو مِثل أو حَضَرَ مَن له فيه سَبَب ، إلاّ بعدَ التصنّع الشديد والتحفّظِ المُفرِط . فإذا كان يُعرَف مِن هذه الجِهات وما أشْبَهَها ويُطَّلَعُ عليه بتظنّن المرجّين والمتعقّبين للأفعال والأقوال والنظر فى مَصادرِ التدبير ومَخايِلِ الأمور ، فيفشُو مِن هذه

(١) اليوم ◌ — (٦) وصار ◌ — (١١) إذا ◌ — (١٧) المرجّين ◌ —
(١٨) والنظائر ◌

الجهات أكثر مما تفشيه ألسن المذاييع المبذر ، فكيف إذا أطلق به اللسان وعوّد إذاعتَه القلبُ والعادةُ أملكُ بالأدب . وربّما أدركه الحدْسُ وقيضه الظنّ ، فنالتْ صاحبَه فيه خُدعة بأنْ يُذكَر له طَرَفٌ منه ويُوهَم أنّه قد فشا وشاع فيُصدِّق الظنَّ فيجعله يقيناً ويفسّرُ الجملةَ فيصيّرها تفصيلا فيُهلكُ نفسَه ويُوبقها . ورُبَّ كلامٍ قد ملأ بطونَ الطوامير قد عُرِف جملتُه وما فيه الضَّررُ منه بسَحاءةٍ أو طابعٍ أو لَحْظةِ مُطَّلعٍ في الكتاب أو حرفٍ تبيّن من ظَهْره . فاسْتيقظْ عِندَ هذه الأحوال واستعملْ سُوءَ الظَنّ بجميع الأنام . فإنّه رُوِيَ عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : الحزمُ سوء الظنّ . وقِيل لثقيف : بِمَ بلغتم ما بلغتم من الشَرف والسُؤدد ؟ قالوا : بسُوء الظنّ . فلا تعتمد على رجل في سرّك تحمد عقله دونَ أن تحمَد وُدَّه ونصحه ، فإنّ الأمر في ذلك كما قال الشاعر :

وما كلُّ ذي لُبٍّ بمؤتيك نُصحه ولا كلُّ مُؤتٍ نصحه بلبيب

ولقد استحسَن الناسُ من بعض رجال العراق أنّه دخل على عبد الملك بنِ مروان فأوْقَع بالحجّاج عنده وسبّه . فلمّا خرج من عندِه خبّر بما كان منه لبعض أصحابه فلامه وأنّبه ، وقال : ما يُؤمنُك أن يُخبِر أميرُ المؤمنين عبدُ الملك الحجّاجَ بما قلتَ فيه — ومرجعك إلى العراق — فيَضغَنه عليك ؟ قال : كلا والله إني ما رَطَلتُ بيدي قطُّ أحداً أرزنَ منه

وهذا واللهِ — أبقاك الله — الغلطُ البيّن والغدرُ الملصق وتحسينُ فارطِ الخطأ ، لأنّه ليس كلُّ راجحٍ وعاقلٍ بناصحٍ لصاحبِ السرّ ، ولو كان

(١) كذا في الأصل ولعله : المبذرين ، او البياذير — (٦) طائر ة

أخوه كذلك كان أمرُه إليه أهمّ وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلّف الأدنى هذه المؤونة ، وإنما يفعلها الأدنَون بالأعلَين رَغبةً ورَهبةً وتحسّنًا عندَهم لحاجتهم إليهم

وأكثرُ من يُذيعُ أسرارَ الناس أهلوهم وعبيدُهم وحاشيتُهم وصبيانُهم ، ولهم عليهم اليدُ والسلطان . فالسرُّ الذى يودعه خليفةٌ فى عامل له يلحقُهُ زينُه وشَينُه أحرى أن لا يكتمه . وهذا سبيلُ كلِّ سرٍّ يُستودَعُه الجِلّة والعظماء ومَن لا تبلغُه العُقوبة ولا تلحقُه اللائمة

وقال سليمانُ بنُ داود فى حِكمته : ليكنْ أصدقاؤُك كثيراً ، وصاحب سرِّك واحداً من ألف . وليس معنى الحديث أن تعُدَّ ممَّن تعرِف ألفاً وتُفضِىَ إلى واحدٍ بسرٍّ إن لم يكنْ ذلك الواحدُ موضِعًا للأمانة فى السرّ ، لكنّه قيل : رجلٌ يساوى ألفَ رجل ورجلٌ لا يُساوى رجلاً ، وكقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا يوجَدُ فيها راحِلة . فكلُّ ذلك يُرادُ به أنّ الفضلَ قليلٌ والنقص *قليل لا على نسَب ما يتلقّاه الاجتماعُ من هذه الأعداد ، لأنّا قد نجدُ الرجلَ يوزن بالأمّة ونجدُ الأمّة لا تساوى قُلامة ظُفُرِ ذلك الرجل . فإذا كان من تقعُ عليه هذه الشريطةُ معدوماً سيّما مَن يُوثَق بحلمِه وعقله وأمانته ونُصحه ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له فى السرّ الذى يُضمرُ ولا يَحرُم عليه كتمانُه ، ومن قد وَأَى على نفسِه بالسرّ والحِفظ ، فإنه ليس كلُّ من ضُمِّن فلم يَضْمنْ ضامناً ولا من استُودِع فلم يَقبلْ *مُستحفَظا ولا من استخْلِف فلم يَخلف خائناً ، وإنّما يلحقُه الحمدُ والذمُّ والأجر والإثم إذا

---

(١٣) كذا ، ولعل الصواب : كثير — (١٨) كذا فوق السطر ، وفى المتن : مستحفظا

ضَمِنَ الأمانةَ ثمّ خَتَرها . فكأنّ القومَ قالوا : لا تُودِعَنّ سرّكَ أحداً ، وإلاّ فمتى تجدُ رجلاً فيه الصِفة التى وصف بها مِسكينٌ الدارميُّ نفسَه حيثُ يقول :

إنى امرؤٌ منّى الحياءُ الذى ترى ... أنوءُ بأخلاقٍ قليلٍ خِداعُها
أواخى رجالاً لستُ أُطلِعُ بعضَهم ... على سرِّ بعضٍ غيرَ أنى جِماعُها
يظلّون شتّى فى البلاد وسرُّهم ... إلى صخرةٍ أعيا الرجالَ انصِداعُها

وقيل لرجلٍ : كيفَ كتمانُك للسرّ ؟ قال : أجعلُ قلبى له قبراً أدفِنُه فيه إلى يومِ النشور . وقال الآخر :

* وأكتمُ السرَّ فيه ضربةُ العنق *

وهذه صِفاتٌ موجودةٌ بالأقوال معدومة بالأفعال ، والمغرورُ من اغترَّ بما يعدُه الواعدُ منها دونَ أن يَبْلوَ الخَبَرَ . والذى جرَّبناه ووجَدناه أنّ أكثرَ مَن يُفضَى إليه بالشىء يبلغُ من إذاعته ونشره ما لا يبلغُه الرسولُ المُستَحْفَظ المعنيُّ بتبليغ الرسالة المحمودُ المُجازى على أدائها ، حتَّى ربَّما كان لا يبلغُ فى الإذاعة لمن أرادها أن يقصِدَ البلاغة من الرجال المعروف بالنميمةِ والتَقْتيت فيوهِمُه أنّه قد استَحْفَظَه السرّ فيشيعُ على لِسانه كما يَشيع الضَوْء فى الظُلمة . وهذا فعلُ عمرَ بنِ الخطّاب رضى الله عنه حينَ أحبَّ أن يشيع إسلامُه ، فقال : مَن أنمُّ أهل مكّة ؟ قيل له : جميلُ بن النُحيت ، فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتُمَه عليه ، فلم يُمسِ وبمكة أحدٌ لم يعلمْ بإسلام عمرَ رضى الله عنه . ثم يكون من أكثرِ الأعوان على إظهار السرّ الاستعهادُ فيه والتحذيرُ من نشره ، فإنّ النهى أغرى لأنّه تكليفٌ مشقّة ، والصبر على التكليف شديد وهو خطِر ، والنفسُ طيّارة متقلبة تعشق الإباحة وتُغرَمُ

بالإطلاق . ولعلّ رجلاً لو قيل له لا تمسحْ يدَكَ بهذا الجِدار ، وهو لم يمسحها به قطُّ ، غُرِيَ بأن يفعل . وكذلك ما حُدِّث به من السرّ فلم يؤمر بستره لعلّه ألاّ يخطرَ بباله ، لأنّه موجودٌ فى طبائع الناس الوُلوعُ بكل ممنوع والضَجَرُ بكلّ محصول . فنريدُ أن نعلمَ لِمَ صار الإنسانُ على ما مُنِـع وإنْ كان لا ينفعُه أحرصَ منه على ما أُبيحَ مِن غير عِلّةٍ ولا سببٍ إلاّ امتهانَ ما كثُر عليه واستطرافِ ما قلَّ عندَه ، ولِمَ أقبلَ على مَن ولَّى عنه وولَّى عمّن أقبل عليه ، ولِمَ قالوا : إذا جَدَّت المسألةُ جَدَّ المنع . وقال الشاعر :

الحُرُّ يُلْحَى والعصا للعبدِ وليسَ للمُلحفِ مِثلُ الرَّدِّ

ولِمَ صار يتمنَّى الشيءَ وينذُرُ فيه النُذور وينقطعُ إليه شَوقاً ، فإذا ظَفِر به صدَّ عنه وأخلقَ عندَه ، ولِمَ زَهِد الملوكُ فيما فى أيديهم ورَغِبوا فيما فى أيْدى الناس . فنقول : إنّ الله تبارَكَ وتعالى جعل لكلّ نفسٍ مبلغاً من الوُسـع لا يُمكنُها تجاوُزُه ولا تتّسع لأكثرَ منه ، فكان معها فيما دُون الوُسع الفَقْرُ وخوفُ الإخوان وفيما تجاوَزَه عزُّ الغنى وأمنُ العدم . وبهذا وبمثلِه مِن البُخل والحِرص استخفّتْ مَن أحتاجَ إليها وأعْظَمتْ مَن استَغنى عنها ، وجَعَلها توّاقة مُشْتاقة مُطرفة ملاّلة كثيرةَ النِزاع والتقلُّب يستحكم عليها المِنّة ويتلى خبرها وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلالُ سَقَطت المِحَن ، فهى تُعَظِّم القليلَ بالضرورة إليه إنْ كان مِن أقْواتِها ، أو لشدّة النِزاع والشَوق إنْ كانَ مِن طُرَف شَهَواتِها ، فانّ صنوفَ الشَهَوات كثيرة ولكل صِنفٍ منها أهلٌ لا يَحفِلون بما سِواه ، ويتعجّبُ من الغريبِ النادر ويُضحِكُها البديعُ

(٥-٦) ولا امتهان بما ... واستطرف ق — (١٣)و(١٥-١٦) كذا فى الأصل

الطارئ ، إلاّ أنّه إذا كثُر الغريبُ صار قريباً ، وإذا تجاوَزَ المطلوبُ مقدارَ وُسعِها وحاجتِها فصار ظهريًا وفضلاً استخفّت به وقلّ في أعيُنِها كثيرُه . وأعظمُ الأشياء عندَها قَدرًا ما اشتدّ إليه الفقرُ والحاجة وإن قلّ ضَرَرُه ، وأهونُها عليها ما استُغنِيَ عنه وإن عَظُم خطرُه ، وجَعل لِما يتوقُ إليه ويشتاقُه مكاناً مِن قُواها له ، فإذا امتلأ ذلك المكانُ سروراً وقضى ذلك الأرب وَطراً ممّا كان طَمِح إليه ورَوِىَ ممّا كان ظامِئًا إليه ، انصرَف عنهُ وقلاه وحالَ عشقُه بُغضاً وشوقُه مَلالاً

والعِلّة في ذلك أنّ الدُّنيا دارُ زَوالٍ ومَلاَل ليس في كِيانها أن تثبُت هي ولا شيء ممّا فيها على حالٍ واحدة ، وإنّما الثُبوتُ الدائمُ لدار القَرار . فالسآمةُ تلحَقُها في مَحبوبِها كما تلحقُها في مكروهها ، كما يُصيبُ المنتهِيَ مِن الطعامِ والشَرابِ والباه ، فإنّه ليس شيء أبغضَ إلى مَن يَتناهى فيه إلى غايتِه من النظَرِ إلى ناحيته فَضْلاً عن مُلابَسَتِه ، إلى وقتِ عَودةِ السَبَبِ الأوّل

فإذا كانت الطبائعُ تَتَشابَه ولِكلّ حاسّةٍ قُوّة ، فإذا امتلأتْ تِلكَ القوّةُ من محسوسِها لم تجِد لها وَراءه "طَعمًا ولا رِيحًا وعادَ عليها بالضَرَر . فبعضُ النظرِ يُعْمِي والصَوتُ الشَديدُ يُصِمّ والرائحةُ المنتِنةُ تُبطِل المَشَمّ والأطعمةُ الحارّة المُحرِقةُ تُبطِل حاسّةَ اللسان . وتتطرّف كلّ واحدةٍ مِنها ، فبينَ الطيب عند مَن بَعُدَ "عهدُه < به > أو الجماع والسَماع وبينه < عند > مَن" هو مغموسٌ فيه بَونٌ بعيدٌ جدًّا في الحلاوةِ وحُسنِ الموقع . كلّ ذلك ما لم يأتِ المالُ والعلمُ ، فإنّه كلّما كثُر كان أشهَى وأعجَب . لأنّ قصدَ

---

(١٤) طمعاً ⊙ — (١٧) صحّحنا العبارة : عهدُه والجماع والسماع وبين من ⊙

الناسِ له ليس لطَلَب مِقدارِ الحاجة وسَدِّ الخَلّة كما يريدُه أهلُ القَناعةِ والزَّهادة ، وإنّما يُرادُ لِقَمعِ الحِرص ، والحِرصُ لا حدَّ له ولا نِهاية ، لأنّه سعيٌ لا لِحاجةٍ وإيضاعٌ لا لِبغيةٍ . وهكذا قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : لو أنّ لابنِ آدمَ واديَين من ذهبٍ لأبتغى إليهما ثالثاً ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلاّ التُّراب . وقال بعضُ الحكماء

مَن كانَ لم يَغْنَ بما يُغنيه ... فكلُّ ما في الأرضِ لا يُغنيه

قال الله عزّ وجلّ وَيُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا . وقال وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ . وقال الشاعر

والناسُ إن شَبِعَت بُطونُهمُ ... فعيونُهمْ فى ذاكَ لا تَشبع

فأمّا الحديثُ الذى جاء : لايَشبعُ أربعٌ مِن أربعةٍ : أرضٌ مِن مَطَر وعينٌ من نَظَر وأُنثى من ذَكَر وعالمٌ من علمٍ ، فإنّ العينَ لا تشبعُ فى الجُملة كما لايشبعُ الخيشومُ من الاستِنشاق . فأمّا مَن <يَشبع مِن> صِنفٍ ممّا يَراهُ دونَ صِنفٍ فإنّه يشبَعُ ويَروَى ويَصُدُّ ويَصدِفُ إلى غيره . وأمّا العلمُ فإنّه أوسعُ مِن أن يُحاطَ به ، فمَن طَلَبه لشرفِه وفخرِه فإنّه لا حدّ له ولا نِهاية ، ولم يَزدَدْ له طَلَباً إلاّ ازدادَ فيه رَغبةً ، ومَن طلبَه منه مِقدارَ كفايته وحاجته كَفاهُ مِنه اليَسير . على أنّه لا يَملكُ مَن كثُرَ علمُه أن يرَى فيه الغِنَى والكِبرياء أيضاً ، وقد يُملُّ كما يُملُّ كلُّ شيء وتَملُّ العينُ أيضاً منه ومِن المال

وقيل : اثنانِ مَنهومان طالبُ علمٍ وطالبُ دُنيا . وهذه النَّهمة تدلّ على

(٧-٨) الفجر : ٢٠ والعاديات : ٨ — (١٢) <يشبع من> : سقط من الأصل وأضفناه — (١٩) النهمة ، صححناه : القصة ق

الخروج عن العقل لأنّ *النَهَم تجاوُزُ القدرِ . *وأمّا الحِرصُ على الممنوع الذى لا يُنتفَع به والعجبُ ممّا لا يُتعجَّب من مِثله ، فليس من أخلاقِ العُقلاء ، وما لم يكنْ فى أخلاقِهم فلا نظَرَ فيه ولا قياس عليـه . وإنّما ذلك مِن فِعل مَن استَوحش من الحُجّة وشرَد عن علم العِلَل والأسباب

وإفشاء السرّ إنمـا يوكَّل بالخبَر الرائع والخَطْبِ الجليل والدفين المغمور والأشنَعِ الأبلق ، مِثلِ سرّ *الأديان لِغلَبةِ الهوى عليها وتَضاغُن أهلها بالاختلاف والتضادّ والوَلاية والعـداوة ، ومثل سرّ الملوك فى كيدِ أعدائهم ومَكنُون شهَواتهم ومَستور تدبيراتهم ، ثمّ مَن يَليهم من العُظَماء والجِلّة ، لِنَفاسة العَوامّ على الملوك وأنّهم سماء مُظِلّة عليهم أعيُنُهم إليهـا سامية وقلوبُهم بها مُعلَّقة ورَغَباتُهم ورَهَباتُهم إليها مَصروفة . ثم عداوات الإخوان ، فإنّما صارت العداوةُ بعدَ المودّة أشدَّ لأطّلاع الصديقِ على سرّ صديقِه وإحصائه معايبَه ، وربّما كان فى حالِ الصداقة يجمعُ عليـه السَقَطات ويُحصِي العيوب ويحتفظ بالرقاع ، إرصاداً ليومِ النَبْوة وإعداداً لحالِ الصَريمة . وقد شكا بعضُ الملوكِ تَنقُّبَ العوامّ عن أسرار الملوك فقال

ما يُريدُ الناسُ منّا ما ينامُ الناسُ عنّا
لو سكنّا باطنَ الأر ضِ لكانوا حيثُ كُنّا
إنّمـا همُّهُمُ أنْ يَنشروا ما قد دَفنّا

*ولم نَرَ حُبَّ الطعنَ على الملوك والتجسُّسَ عن أخبارهم وعِشقَ نَشرِ المعـايب واستِحلالَ الغِيبة ظاهراً فى طِباع الناس لا يكادُ يَنجو منـه

(١) الفهم تجاوز الغـدر ⊃ — وإنما الحرص ⊃ — (٦) الإدمان ⊃ — (١٨) ولم نوجب ⊃

أحدٌ منهم ، إلّا مَن رَجَح حِلمُه وعَظُمت مُروءَتُه وظهر سُؤدُده واشتدّ وَرَعُه ، حتى قال بعضهم : الغِيبَة فاكهة النُسّاك . ورَوَوا عن بعضهم أنّه قال : الفاسِقُ لا غِيبةَ له . وقال آخر : أتراعون مِن ذِكرِ الفاسق ؟ أذكروه يَعرِفْه الناسُ

ولم نَرَ الله جلّ ثناؤه رَخّصَ فى اغتياب مؤمنٍ ، بَل ضَرَب المثلَ فى الغِيبة بأكرهِ ما تكرَهُه النفوس وما تختارُ منه الموتَ على الحياة ، فقال وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ . واغتيابُ الناسِ جميعاً خُطّةُ جَوْرٍ فى الحُكم وسقوطٍ فى الهِمّة وسَخافةٍ فى الرأى ودناءةٌ فى القيمة وكُلفةٌ عريضة وحَسَد ونَفاسَة قد استحوَذَت على هذا العالَمَ وغلبَت على طبائعهم وتوكّدت لسوءِ العادة عندهم ولعُلُوّ الشرّ على الخير وكثرةِ الدَغَل والنَغَلِ والحَسَدِ فى القلوب . فلستَ ترى منها ناجياً ، امّا ناظرٌ بعين عَدلٍ وإنصافٍ فهُوَ يرى ما يُنكِر فيبدو فى وجهه ولسانه ، وامّا ناظرٌ بعينِ البِغْضاء والعَداوة فهو كثيراً مّا يجدُ من العُيوب فى عدوّه ما يُعينُه على التخرُّص عليه فيقويها ويزيد فيها ، وإن عدم الحق تقوّل وقبّح الحَسَنَ وزادَ فى قُبْح القبيح . والحديثُ كلُّه إلّا ما لا بالَ به ذِكرُ الناس ولغوٌ وخَطَلٌ وهُجْرٌ وهُذاء وغِيبَة وهَمزٌ ولَمزٌ . وقال بعضُ الحكماء لابنه : يا بُنَيّ إنّما الإنسانُ حديثٌ فإن استطعتَ أن تكونَ حديثاً حَسَناً فافعل .

وكلُّ سرٍّ فى الأرض إنّما هو خبرٌ عن إنسانٍ وطَيٌّ عن إنسانٍ ، فله فى

(٣) أترعون ت — (٩) دناء ت — (١٢) بغير عدل ت — (١٣) نظر ت — (١٤) كثير ما ت — (١٩) او طى ت

(٦-٨) سورة الحجرات : ١٢

الغيبةِ أكثرُ الحظّ ، وجُلُّها كُلفة لا ضرورةٌ . يَرَى صاحبُها أنّه قد أهملَ مُحاسَبَةَ نفسه وغفرَ ذنوبها وألغى عُيوبَها ، وقَصَدَ قَصدَ غيره فتشاغل عما يَعنيه بما لا يعنيه ، فأنكرَ أقوالَه وأفعالَه وهَجّن تدبيرَه وتعجّب من مَقابحِه وجَهَدَ نفسَه فى تفقُّد أمورِه ، ليس ذلك عن عِنايةٍ بصَلاحِه ولا محبّةٍ لتقويمه وتهذيبه ولا أنه مُسيطِر عليه ولا محمودٌ عنده على ما عُنِيَ به من شأنه ، بل هو عنده عينُ المذمومِ . وهذا جُلّ حديثِ البَشر وشُغلهم فى الليل والنهار

قال بعضُ الحُكماء : فُضول النَّظَر تدعُو إلى فَضْلِ القَول وفُضول الخواطرِ تبعثُ على اللهو والخَطَل . ولو كان الرجلُ لا يتكلّم إلاّ بما يَعنيه ولا يتكلّفُ ماقد كُفِيَه ، قلّ كلامُه . ولو حَكَّمَ العدل فى أمورِه وفيما بينه وبين خالقه وبينه وبين إخوانه ومُعامليه ، لطاب عيشُه وخَفّت مَؤونتُه والمؤونةُ عليه . فإنّ الله تبارَكَ وتعالى لم يخْلُقْ مَذاقاً أحلى من العدل ولا أروَحَ على القُلوب من الإنصاف ، ولا أمرّ من الظُلم ولا أبشَعَ من الجَور

وقال بعضُ المتقدِّمين : إنَّما يعرِفُ الظلمَ مَن حُكِم به عليه . ومن استعمل العدلَ دلّه على أنّ الناسَ يجدُون من طَعْمه وطَعْم الظُلم إذا فعَله بهم مثلَ الذى يجدُ إذا ظُلم ، فكَرِهَ لهم ما كرِه لنفسه فأنصَفَ ولم يَظلم . ويتظالمُ الناسُ فيما بينهم بالشَرَه والحِرص المركَّب فى أخلاقِهم ، فلذلك احتاجُوا إلى الحُكّام وقد أُطلق لهم تصريفها ، وأخلاقهم وأماناتهم التى ردّت إليهم الأحكام فيها ما جنايته عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم

وقال بعضُ الحكماء . إنّ من أصعبِ الأعمالِ إنصافَك فى نفسِك ،

---

(٣) وهجر ط — (٩) العيدى ط — (١٦) لعل الصواب : الأحكام ؟

ومُؤاساتَك أخاكَ فى مالِك ، وذِكْرَ الله ، أَمَا إنّى لا أعْنى قولَ : سُبحانَ الله والحمدُ لله ولا إلَهَ إلاّ اللهُ واللهُ أكبر — وإنَّ ذلك لَمِنْ ذِكْر الله — ولكنْ ذِكرَه عندَ ما يَعرِضُ من الأمور ، فإن كانَ طاعةً لله فَعلتَه وإن كانَ مَعصيةً لله اجتنَبْتَه

ورُوِىَ عن بعضِهم أنّه قال : ثلاثةٌ فى ظِلِّ عَرشِ الله يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلُّه : رَجلٌ لم يَعِب أخاهُ بعَيبٍ فيه مِثلُه حتّى يُصلِح ذلكَ العيبَ من نفسه فإنّه لا يُصلِحه حتى يَهجُم على آخَر فتشغَلُه عيوبُه عن عيوبِ الناس ، ورجلٌ لم يُقدِّم يَداً ولا رِجْلاً حتّى يعلمَ أفى طاعةِ الله هُوَ أم فى مَعصيتِه ، ورَجلٌ لم يَلتمس مِن الناس إلّا مِثلَ ما يُعطِيهم من نفسه . أمَا تُحِبّون أن تُنصِفوا ؟

وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : رحم اللهُ عبداً أنفق الفَضلَ من مالِه وأمسَكَ الفضلَ من قولِه وشغَلَه عيبُه عن عيوبِ الناس

وقال عيسى بنُ مَرْيم : يا بَنى إسْرائيلَ أيَرَى أحدُكُم القَذاةَ فى عين أخيه ويَعْمَى عن الجِذْع المعترِض فى عَينِه

وقيل لعيسى بن مَرْيم : ما أفضلُ أعمالك ؟ قال : تركِى ما لا يَعنينى

وقال عَمْرُو بنُ عُبَيد : أعْيَتْنِى ثلاثُ خِلال : تركِى ما لا يَعنينى ودِرهَمٌ من حِلّه وأخٌ إذا احتجتُ إلى ما فى يديْه بَذَلَه لى

وما أحَقَّ مَن أُحصِيَت ألفاظُه وليس من قولٍ يَبدُرُ منه إلّا لَدَيه رقيبٌ عَتيد ، ومَن أُحصِيَت عليه مثاقيلُ الذَّرِّ واستُشْهِد عليه جِلدُه وجوارحُه ، أن يَضبُطَ لسانَه . وقد جاء فى بعضِ الآثار : مَن عَدَّ كلامَه مِن عمله قلَّ كلامُه

---

(٨) انه فى طاعته ع

إلّا فيما يَعنيه

وكلُّ امرئٍ لحسيبُ نفسِه غيرُ مأخوذٍ بغيره ، وهُو الوحيدُ دونَ الأهل والوَلَد والقَرابة . وقال اللهُ جلَّ ثناؤه — وقولُه الحقُّ — : كُلُّ أمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . وقال : يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ

وليس الأمرُ بالمعروف والنهيُ عَن المُنكَر إلّا مَع السَيف والسَوط . وقال بعضُ الحُكماء : شيْآنِ لا صَلاحَ لأحَدِهما إلّا بالآخر : اللسانُ والسيف

وأنت إذا تأمّلتَ أكثرَ ما يَتَناجى به المتحدّثون ، وَجَدتَ أكثرَ السائلين يسألُ عمّا لا يَعنيه ويكترثُ لِما لا يَكرثُه ويُعنى بما لا ينفعُه ولا يضرُّه ، وأكثرَ المُجيبين يجيبُ ولَم يُسْأَل ويتكلَّفُ ما لا يَعلم ، ولو قال له قائلٌ مَن سألَكَ لافتَضح ولو حاجَّه فيما ادَّعى وَوَقَفَه لانقطع . قال الله عزّ وجلّ : قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ

ومرّ هشامُ بنُ عبدِ الملِك ببعضِ أهل الكُلْفة والفُضول وعليه حُلّةٌ ذَيّالة يسحبها في التُراب ، فقالَ له المتكلِّفُ : يا هذا إنّكَ قد أفسدتَ ثوبَك ، قال وما يضرُّكَ مِن ذلك ؟ قال : ليتَكَ ألقيتَه في النار ، قال : وما ينفعُكَ من ذلك ؟ فأفحَمه أقبحَ الإفحام . ولو تهيّأ للمتكلِّفين في كلّ وقت مثلُ صَرامةِ هِشام لأزْدَجَرَ مَن بهِ حياةٌ مِنهم وقَلّت الفُضولُ والكُلَفُ والغِيبة

قالوا : وليس مِن أحَدٍ أذَلَّ مِن مُغتابٍ ، لأنّه يُخفي شخصَه ويُطامِن

(٣-٤) سورة الطور : ٢١ — (٤-٥) سورة المائدة : ١٠٥ — (١٢) سورة ص : ٨٦

حِسّه ويَغُضُّ مِن صَوتِه ، ولا يريدُ بما ينالُه مِن ذلك إلا بأن يرفعَ مِن قَدْرِ خَصمِه ويُعظّمَ من شأنه

قال مُعاوية : أتدري مَن النبيلُ ؟ هُو الذي إذا رأيْتَه هِبْتَه وإذا غابَ عَنك اغْتَبْتَه . وهي لَعَمْري سبيلُ العُظماء عندَ العوامّ والملوكِ عند الرّعيّة والسادة عند العبيد ، فلم يأخُذ المغتابُ ممّن اغتابَه شيئاً بعَضيهته إيّاه إلاّ والذي أعطى مِن الهيْبة عند حُضوره أكثر منه . ولو كان المُغتابُ لا يستتِر من الغيبة إلّا ممّن يخافُ سَطْوتَه كان أعْذر ، ولكنّ اللُؤمَ المتمكّنَ منه يحملُه على اغتيابِ عبدِه وأَمَتِه فضلاً عن كُفْؤِه ونظيرِه ، ويغتابُ الرجلَ عندَ عدوِّه والمُشاحِن له مُساعَدَةً له بالسُخف وتقرُّباً إليه بالمهانة والضَعْف ، مِن غير أن يكونَ له عليه طَوْلٌ أو يلتمسَ منه على ما تقرّب به إليه جزاءً أو شُكورًا . ثمّ لعلّه ينكفِئ إلى الذي اغتابَه وقصَبَهُ من ساعَتِه ويَومِه ، فيعطيه في عدوّه الذي اغتابَه عندَه أيضا مِثلَ ذلك وأكثر منه ، لا لِعلّةٍ أيضاً ولا مرفقٍ ولا رِبحٍ أكثرَ من الذلّة التي يجدُها في نفسِه والضَعفِ في مُنّته ، كما يُعظِّم الغنيّ بغير ثَمَنٍ ويحتقر الفقير بغير سَبَبٍ ، فمتى كوشِفَ أو عُوتِبَ لَبِسَته ذِلّة أُخرى من الكظّة بالمعاذير الكاذبة والاعتصام بالأيْمان الفاجرة ، ومَن كانت هذه دُرْبَتَهُ فهو حَرِيٌّ أن يُطّلَعَ على دِخلة أمْره فلا يُقبل منه عُذرٌ ولا يُصدَّق في قولٍ ولا حَلِفٍ ، وقد تَسَربَلَ الذلّة وتدرّعَ الخُضوعَ .

وليسَ مِن سُوس النفسِ الكريمة الشَهْمة أن تَلقَى الناسَ بخلافِ ما يَخلقون به ، ما لَم تأتِ ضَرُورةٌ يُحتاجُ فيها إلى كَيدٍ وغِيلة أو مكرٍ وحيلة . ويُثار

---

(١٦) لعل الأصح : دريئته — جرى ۞ — (١٧*) مستديل ۞ — (١٨) يخلفون ۞

بالغيبة فيها الرأىُ الأصيل مِن مَكانِه ، فيَفعلُ ذلك العاقل فيما يحلُّ له ويَحسُنُ به ، بعدَ أن تُعيِيه الحيلةُ فى أستصلاح ذلك العـدُوّ بالرفق والمُلاينة . وإنما قيل : قلَّ مَن أعتذر إلّا كذَبَ ، لِكثرة النطف فى الناس وضَعف أنفسهم على الإقرار بالذنب . فلا ذِلّةُ الضعف الثانى فى الاعتذار نَهت عن كُلفة الضعفِ الأوّل فى الاغتياب ، ولا كُلفةُ الضعفِ الأوّل صانت عن ذِلة الضعف الثانى . وعلى أنّ أكثرَ مَن يُعتَذرُ إليه ليسَ بقابلٍ للعُذر على حقيقةٍ ، وإن أظهرَ القَبولَ ، لِما جرَّب مِن سَخاء النَفسِ بالأيمان وبُعدِهم من الإقرار بالذنب ، ما لم تأتِ حُجّةٌ واضحة ودليلُ شاهدٍ عَدلٍ

وإذا كانتْ هذه سبيلَ المعتذَر إليه ، فيحِقُّ عَلَى المعتذِر — إنْ كانت فى نفسه قيمةٌ — أن لا يعتذِرَ إلاّ إلى مَن يُحبُّ أن يجدَ له عُذراً ، ولا يَعجَلَ إلى اليمين وهو يجدُ للحُجّة مكاناً . وأكثرُ مَن نعتذِرُ إليه إنما نفعل ذلك به خوفاً من سقطته وإبقاء لسُلطانه . والمتفقّهون يتأوّلون فى الأيمان السُلطانية ما يُلحِقُ بها عندَ السُلطان التُهمَةَ ويُلزمُهم الظِنَّةَ ، سيّما فى الأمور التى فى الإقرار بها إباحةُ الدمِ والمالِ وهَتْكِ السِتر . ولا حَسْمَ لهذا الداء إلاّ بأطِّراح الفُضول وسلامةِ اللسان مِن أن يَلسغَ فى الأعراض ويستسرَّ بالعضيهة والبُهتِ

قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : المسلمُ مَن سَلِم المسلمون من لِسانه ويده ، ومَن لَم يسلم الناسُ منه فليسَ سالمًا من نفسه . وقال القائل : أحرُسْ أخاكَ إلاّ مِن نفسه . وقالوا مقتلُ الرجُل بين فكّيه . وكُتِب على بعضِ أبواب المُدُن بالمُسند : أحفَظ رأسَك . وقال الأول : قد تَصِل النِصالُ إلى الإخوان

(٤) لعل الصواب : عن — (٥) الأولى ؟ — (٧) لعل الصواب : الناس —
(١٢) لعل الصواب : من سخطته — (١٥) يبلغ ؟ — (١٩) بالسند ؟

فتُستخرج ، وأمثالُ النِصال من القول إذا وَصَلت إلى القلب لم تُستخرَج أبداً . وقال بَهرام ، وسَمِع فى الليل صَوتَ طائرٍ فتحدّاه بسَهمٍ وهو لا يراه إلّا أنّه تتبَّعَ الصوتَ فصرعَه ، فلمّا صار بين يدَيه قال : والطيرُ أيضاً لو سَكت كانَ خيرًا له . وقيل : ما شىءٌ أحقّ بطُولِ سِجنٍ من لسان . وقيل : إنّه يسألُ اللسانُ الأعضاءَ فى كلّ يومٍ فيقول : كيف أنتنّ ، فيقُلن : بخيرٍ إنْ تركتَنا . وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم لمُعاذِ بنِ جَبَل : وهل يُكِبُّ الناسَ على مَناخِرهم فى النار إلاّ حَصائدُ ألسِنتهم

وقال عيسى عليه السلام : أعمالُ البرّ ثلاثة : المنطقُ والنظرُ والصَمت ، فمَن كان منطقُهُ فى غيرِ ذكرِ الله تعالى فقد لغا ، ومَن كان نظرُه فى غيرِ اعتبارٍ فقد سَها ، ومَن كان صمتُه فى غيرِ تفكّرٍ فقد لها . فانظُر بأيّ الأمرين قطعتَ عُمرك : أبالحِكمة أمْ باللغو . وانظُر كيف وَصَفَ اللهُ تعالى مَن أثنى عليه بخيرٍ من عباده فقال : "وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وقال : وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ . وقال : وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وصانَ عنه أسماعَ أهل الجنّة وألسِنتَهم فقال : لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا

وقال رَسول الله صلّى الله عليه وسلّم : العبادةُ عشرةُ أجزاء تسعةٌ منها فى الصَمت . وقال علىُّ بنُ أبى طالبٍ رضوانُ الله عليه : أفضَلُ العبادة الصبرُ وانتظارُ الفرَج

وقال بعضُ الحكماء : لو لم يكن للصامتِ فى صَمتِه إلاّ الكِفاية لأن يتكلّم بكلامٍ ويُحكَى عنه مُحرّفاً فيضطرّ إلى أن يقولَ : ليس هكذا قلتُ إنّما قلتُ كذا وكذا فيكونَ إنكارُه إقرارًا واعترافُه بما حُكِىَ عنه شاهدًا لِمَن

---

(١٢) سورة المؤمنون : ٣ — (١٢-١٣) سورة القصص : ٥٥ — (١٣) سورة الفرقان : ٧٢ — (١٤) سورة الواقعة : ٢٥-٢٦

وَشَى به وادّعاء التّحريف غير مقبولٍ منه إلاّ أن يأتىَ ببيّنةٍ بها ، لـكانَ ذلك من أكثر فضائلِ الصّمت . وربما ذكرَ رجلٌ اللهَ تبارَكَ وتعالى ، فـكانَ ذلك الذكرُ إثمًا له ، لأنّه قد يُدخِله فى باب تفخيمِ الذّنبِ الحقيرِ والإغراء والتّحريضِ ، فيَسفكُ الدمَ الحرام أو يعظِّم الجُرحَ الصغير ، بل ربّما ضحِك وتبسّم فأغرى وحرّض وأثمَ وأوبق . قال بعضُ الشُّعراء :

فإن شئتُ أدلَى فيكما غيرُ واحدٍ ... مُجاهَرةً أو قال عِندىَ فى سرِّ
فإن أنا لم آمُرْ ولم أنْهَ عنكُما ... ضحِكْتُ له حَتى يلجَّ ويَستَشرِى

وقالت العرب : مَن كُفِى شرَّ لَقْلَقِه وذَبْذَبِهِ وقَبْقَبِهِ فقد كُفِى الشرّ

وهذا بابٌ لَولا أن نشغَلَ القارئَ لهذا الـكتاب بغير ما قَصَدنا إليه وعَزَمنا عليه لأتينا عليه ، وهو كثيرٌ موجودٌ لِمَن طَلَبه . وجُمْلةٌ واحدةٌ فيها كِفايةٌ ، فإنّما تختلفُ الألفاظُ التى تُجعَل كُسْوةً لتلك المعانى . وإلّا فإنك إذا نظرتَ إلى جميعِ شُرور الدُنيا وجدتَ أوّلَها كلمةٌ غارت فجَنَتْ حَرْبًا عَوانًا كحربِ بَكرٍ وتغلبَ ابنَىْ وائلٍ وعبسٍ وذُبيانَ ابنَىْ بَغيض والأوسِ والخَزرجِ ابنَىْ قَيْلة والفِجارِ الأوّلِ والفِجارِ الثانى وعامّةِ حُروبِ العربِ والعَجم . وإذا تأمّلتَ أخبارَ الماضين لم تُحْصِ عدَدَ مَن قتله لسانُه وكان هلاكُه فى كلمةٍ بَدَرت منـه . وليس العجبُ ممَّن أفضى بسرِّه إلى مَن ليس له بموضعٍ ممّن تقدّمت معرِفتُه وزالت الشكوكُ عنه فى أمره ، ولـكنّ العجبَ عينَ العَجَب ممّن استَنَام بسرِّه إلى مَن لم يتقدّم معرفته ومن أنِسَ إليه عن اللقاء واللقائين دون معرفة العَين والاسمِ والسَّبَبِ والنَّسَبِ ، فانخدَع فى أوّلِ وَهلةٍ وغبِن عقلَه قَبلَ أن يُغْبَن دينَه ومالَه وتضاعَفَت عليه البليّة بطولِ الحسرة ، فإنّ

(١) لعله : له — (١٢) كذا فى الأصل ولعلها: ثارت أو بدرت — (١٨) عن اللقاة واللقاتين ؟

البلاء عارضٌ ومُكتَسَب ، فكأنّ العارضَ السماويّ وما خوّلته الأقدارُ سرًّا بعدَ اجتهادِ صاحبه رأيَه وحيلتَه فى طَلَبِ الخير . وصوابُ تدبيرِه فيه أسهلُ وأيسرُ على العاقل المعتاد للصَواب ، وإن كان كلُّ مكروهٍ مُرًّا بَشِعاً . وإنما الكربُ اللازم والداء العَيَاء ما اجتمع على صاحبه مع الفجيعةِ والحاجةِ والنَقص والذِلّة غمُّ الندامة والأسفُ على ما فرّط منه ، إذ كانَ الجانى على *نفسه بيده . ولهذا الكلام نظرٌ نَكرهُ التطويلَ به والمعنى واحد . وإنما تحتاجُ من هـذا ومثله ممّا قدّمنا ذِكرَه فى الكتاب إلى حفظ السرّ ووَزن القول ، وإلى هـذا أجرَينا وله قصَدنا . ولو اقتصَرنا فى هذا الكتابِ على حَرفٍ مما فيه لكان بإذْن الله كافياً لِمَن كان له لُبٌّ وعقلٌ ، لكنّ الاحتجاجَ أوكدُ والإيضاحَ أبلغُ ، والحظُّ فى هـذا القولِ كلّه لِمَن عَقَله والآخذِ به أوْفرُ *< منه > لمن قاله ولم يعمل بقوله ، لأنّه إنّما يجتنى ثمرةَ الصَواب *ويختاف برفقه مَن صَدق قوله بفعله . فإنّ الحكمةَ قولٌ وعمل ، وإنما حَظُّ القائلِ ما لم يَستعمِل عامه وقوله حظُّ الواصفين ، وحسنُ الصِفة تزولُ بزَوَالها وتنقطعُ بانقطاعها ، ومُدّتها — إلى أن يملّها القائل والسامع — يسيرةٌ . والأفعالُ المحمودة متّصلةُ النفع والشرفِ والفضيلة فى الحياة وبعدَ الوفاة ومَذخورة للأعقاب وحديثٌ جميلٌ ونَشرٌ باقٍ على مَرّ الجديدَين . وأكثرُ من ذلك كلّه توفيقُ الله وتسديدُه ، فإنّ القلوبَ فى يده والخيرات مقسوماتٌ من عنده . وحَسبُنا الله ونعم الوكيل (*)

---

(٦) نفعه ص — (١١) <منه> : أضفناه — (١٢) لعله الصواب : ويجتلب نفعه — (١٤) يسيره ص

(*) تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعون الله وتأييده ومشيئته وتوفيقه والله الموفق للصواب برحمته ، والحمد لله أولا وآخرا وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

٣

رسالة فى الجدّ والهزل

من تصنيف

أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الى محمد بن عبد الملك الزيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(*) جُعلتُ فِداكَ ، ليس من *أجل اختيارى النَخلَ على الزرع أقصيتَنى ولا على مَيلى إلى الصَدَقة دون إعطائى الخراج عاقبتَنى ولا لبُغضى دَفعَ الإتاوة والرِضا بالجِزية حرمتَنى ، (†) ولستُ* أدرى لِمَ كرهتَ قُربِى وهَوِيتَ بُعدِى واستثقلتَ روحى ونفسى واستطلتَ عُمرى وأيّامَ مُقامى ، ولِمَ سَرَّتك سيِّئتى ومُصيبتى وساءتك حَسَنتى وسلامتى ، *نعم حتى ساءك *عَزائى وتجمُّلى بقدر ما سَرَّك جَزَعى وتَضجُّرى ، وحتى تمنّيتَ أن أُخطِئَ عليك فتجعل خطأى حُجّةً لك فى إبعادى وكرهتَ صوابى فيك خوفاً من أن تجعله ذريعةً* لك إلى *تقريبى . *فإن كان ذلك هو الذى أغضبك وكان هو السبب لِموجدتك* ،

(٦) [أجل] م — (٨) رأيتك أبقاك الله قد كرهت ب (فى ابتداء الرواية) — (١٠) نعم م : [ ] ۞ — عزائى م : [ ] ۞ — (١٢) [لك] م — (١٣) تقربى م — فان كان ... لموجدتك م : [ ] ۞

(*) (٦–ص ٦٢ ، ٢) جعلت ... الجريمة : رواية م ١

(†) (٨–٩) ولست ... مقامى : رواية ب ١

فليس — جُعلتُ فِداكَ — هذا الحِقد فى طبقة هذا الذنب ولا هـذه المطالبة من شَـكل هذه الجريمة . ولو كان إذ لم يكن فى وزنه وقع قريباً وإذ لم يكن عِدلَهُ وقع مشبهاً ، كان أهون فى موضع الضرر وأسهل فى مَخرج السماع . (*)فأىّ شىء بقّيتَ للعدوّ المُكاشِف وللمنافق المُلاطِف وللمعتمِد المُصِرّ وللقادر المُدِلّ ؟ ومَن عاقب على الصغير بعقوبة الـكبير وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار وعلى الخطأ بعقوبة العَمد وعلى معصية المُسِرّ بعقوبة معصية المُعلِن ؟ ومَن لم يُفرِّق بين الأعالى والأسافل وبين الأقاصى والأدانى عاقب على الزنا بعقوبة السَرِقة وعلى القتل بعقوبة القَذف . ومَن خرج إلى ذلك فى باب العِقاب خرج إلى مِثله فى باب الثواب ، ومَن خرج من جميع الأوزان وخالف جميعَ التعديل كان بغاية العقاب أحقّ وبه أولى

والدليلُ على شِدّة غيظك وغَلَيان صـدرك ، قوةُ حركتك وإبطاء فَترتك وبُعدُ الغاية فى احتيالك . ومِن البرهان على ثبات الغضب وعلى كظم الذنب تمـكُّنُ الحِقـد ورسوخُ الغيظ وبُعد الوَثبة وشِدّة الصولة . وهذا البرهانُ صحيحٌ ما صحّ النظم وقام التعديل واستوت الأسـباب . (†)ولا أعلم ناراً أبلغ فى إحراق أهلها من نار الغيظ ولا حركة أنقض لِقوّة

---

(١) أبقاك الله م — (٢) من شـكل م : شـكل من ن — (٤) أبقيت م — وللمتعمد ب — (٥) [وللقادر المدل] ولمن عاقب ب — (٦) المسر ب : المنستر م ، المستتر ن — (٧) المعلن م ب : المعاند ن — (٨) السرقة م : السرق ن — (١٠) وبه أولى م : به وأولى ن — (١٢-١٣) على ثبات ... الذنب ن : على بيان الغضب وعظم الذنب م ، وكلتا القراءتين محرفة —

(*) (٤) ابتداء رواية م ٢ — (٤-٧) فأى ... المعلن : رواية ب ٢

(†) (١٥-س ٦٣ ، ٤) ولا أعلم ... دون العام : رواية ب ٣

الأبدان من طلب الطوائل مع قلّة الهدوء والجهل بمنافع الجمام وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير . ولا أعلم تجارةً أكثر خسراناً ولا أخفَّ ميزاناً ، من عداوة العاقل العالم وإطلاق لسان الجليس المُداخِل والشعار دون الدِثار والخاصّ دون العامّ . والطالبُ — جُعلتُ فِداك — بعَرَض ظَفَر ما لم يخرج المطلوب وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومِن الحزم ألاّ تخرج إلى العدوّ إلّا ومعك من القُوى ما يغمر الفَضلةَ التى يُنتجها له الإحراج . ولا بدّ أيضا من حزمٍ يحذِّرك مُصارِعَ البغى ويُخوِّفك ناصرَ المظلوم(*)

(†)وبعدُ — أبقاك الله — فأنت على يَقين من موضع ألم الغيظ من نفسك ، والغيظُ عذابٌ ، ولربما زاد التشفّى فى الغيظ ولم ينقص منه . ولستَ على يَقين من نفوذ سَهمك فى < صيدك كما أيقنتَ بموضع الغيظ من > صدرك . والحازم لا يلتمس شِفاء غيظه باجتلاب ضِعفه ولا يُطفِىء نارَ غضبه تأخّرُ عقوبةِ مَن أغضبه ولا يسدِّد سهمَه إلّا والغرضُ ممكن والغايةُ قريبة ولا يهرب والمهرب معجزه . إنّ سلطان الغيظ غَشوم وإنّ حُكم الغضب جائر ، وأضعف ما يكون العزم عن التصرّف أضعف ما يكون الحزم . (**)والغضب فى طِباع شيطان والهوى يتصوّر فى صورة امرأة ، فلا يُبصِر

(١-٢) [مع قلة ... من التدبير] ب — (٣) العالم م : [ ] ض — (٤) أبقاك الله م — (٦) ما يغمر م : ما < لا > يغمر ض — يفتحها م — (٧) ويخوفك م : ويحرك ض — المطلوب م — (٨) [أبقاك الله] ب — موقع ب — [من نفسك] ب — (٩) وربما ب — (١٠) < ... > ب : سهمك فى صدك ض — (١١) لا يجتلب ب — [ولا يطفى ... أغضبه] ب — تأخر ، لعل الصواب : بأمر — (١٣) والهرب معجز ب ، < إلا > والهرب معجزة ض

(*) اهـ رواية م ٢ — (†) (٨-١٣) وبعد ... معجزة : رواية ب ٤

(**) ابتداء رواية ب ٥

مَساقطَ العَيب ومواقعَ الشرف إلاّ كلُّ معتدل الطِباع ومعتدل الأخلاط ومستوِى الأسباب . (*)والله لقد كنتُ أكره لك سَرَفَ الرضا مخافةَ جواذبه إلى سرف الهوى ، فما ظنُّك بسرف الغضب وبغلبة الغيظ ، ولا سيما ممن *قد تعوّد إهمالَ النفس ولم يُعوِّدها الصبرَ ولم يُعرفها موضعَ الحظّ فى تجرُّع *مَرارة العفو . *وإنما المراد من الأمور عواقبها لا عواجلها . ولقد كنت أشفق عليك من إفراط السرور فما ظنّك بإفراط الغيظ . وقد قال *بعض الناس : لا خير فى طول الراحة إذا كان يورث الغفلة ولا فى *طول الكفاية إذا كان يؤدِّى إلى المَعجزة ولا فى كثرة *الغنى إذا كان يخرج إلى البلادة

(†)جُعلتُ فِداك ، إنّ داء الحُزن وإن كان قاتلا فإنه داء مُماطِل *وسقمه سقم مُطاول ومعه من *التمهّل بقدر قسطه من *أناة المِرّة السوداء . وداء الغيظ سفيه *طيّاش وعجول خاش يعجل عن التوبة *ويقطع دون الوصية (**)ومعه *من الخرق بقدر قسطه من التهاب المِرّة الحمراء . *< والعجول يُخطئ وإن ظفر ، فكيف به إذا أخفق . على أنّ إخفاقه يزيد فى حقيقة خطئه كما أنّ ظفَره لا ينتقص من مقدار زَلَله > . وأنت روحٌ كما

(٣-٤) [قد] تعود [إهمال] م — (٥) مرارته [العفو] م — وإنما م : وان خ — (٦) [بعض] م — (٧) [طول] الكفاية ؟ — (٨) الغنى م : المنى ؟ — (١٠) و <ان> سقمه ب — من التمهيل م ، من التمسك ب — آثار ب — (١١) طائش ب — (١١-١٢) ويقتطع عن التوصية ب — (١٢) من الخوف ب — (١٣-١٤) <...> ب فقط

(*) ابتداء رواية م ٣ ، وانتهاء رواية ب ٥

(†) (٩-١٤ زلله) رواية ب ٦

(**) اهـ رواية م ٣

أنت وحشيّ من قَرنك إلى قَدَمك ، وعمـــل الآفة فى الدِقاق والعِتاق أسرع وحدّها عن الغلاظ الجُفاة أكلّ . فلذلك اشـتدّ جَزَعى لك من سلطان الغيظ وغلبته

والله لو كنتُ ابتلعتُ مِرارَ بابَك وأبطلتُ *مر البـاطل ورددتُ الفظائع كلها ونقضتُ الشروط بأسرها وأفسدتُ نِتاجَك وقتلتُ كل شطرنجىّ لك ورفعتُ من الدنيا فراهة الخيــل وجعلتُ المروج كلها حِمىّ وكنتُ *جُذام المردان وبِرسام الأولاد ومسختُ جميع الجوارى فى صورة أبى رملة ورددتُ شطاط خلقك إلى جعودة *أبى حثة وكنتُ أوّل مَن سَنَّ بَيعَ الرجال فى النخاسين وفتَحَ باب الظُلم لأصحاب المظالم وحوّلتُ إليك عقل أبى دينار وطُبِعتُ على بيان مانويه (*)*وأعَنْتُ على موت المعتصم وغضبتُ *لمصرع الأفشين واستَجبْتُ *للديك الأفرق وأحببتُ صالح بن حُنَين *وأحوجتُك إلى حاتم الريش وكان أبو *الشماخ صديقى والفارسىّ من شيعتى < *ورفستُ حمزة رفسةً شديدة وركلتُ عُمَرَ ركلةً صعبة ، > لكان *ما تركبُنى به سَرَفاً ولـكنتَ فى هذا العقاب *متعدّياً

جُعلت فِداك ، لا تتعرّض لعـــداوة عقلاء *الرواة ولضغينة حُفّاظ المثالب وللسان مَن قد عُرِف *بالصدق والتوخّى وبقلّة الخَطَل *والتكسّب ،

(٤) كذا فى ى وكلتا الـكلمتين محرفة — (٧) جذام المردان ، صححنا : صداق المرادين ى — (٨) ابى حثة ى ولعله محرف — (١٠) والله لو كنت احتلت على موت ب — (١١) لصرع ب — للديك الأفرق ب : للدين الأبيض ى — (١٢) وأخرجتك إلى حاتم الرئيس ب — أبو السماح ب — (١٣) <ورفست ... صعبة> ب — (١٤) ما تركبنى ، صححنا : ما تركتنى ى — معتديا ب — (١٥) الرجال ب — (١٦) عرف العضد ب — كذا ، ولعلها : التكذب ، أو التنكب

(*) (١٠-١٦ عرف بالصدق) رواية ب ٧

ما وجدتَ عن ذلك مندوحة ووجدتَ المذهب عنه واسعاً . ولا تُعاقِب وَادًّا وإن اضطرّك الوادّ ، ولا تجعل طول الصُحبة سبباً للتضجُّر . واُصبر على خَلَقه فإنّ خَلَقه خير من جديد غيره . وصداقة المستطرف *غَرَرٌ وملالة الصديق أفْنٌ . والعلمُ *بأقدار الذنوب غامض وحدود الذنوب فى العقاب خَفِيّة . ولن يَعرف العقاب مَن يجهل قدر الذنب ، والأجرام كثيرة الأشكال ومتفاوتة فى *الأقدار . وإذا أردتَ أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه ، فانظر فى علّته وفى سببه وإلى معدنه الذى منه نجم وعُشّه الذى منه دَرَجَ ومغرسه الذى فيه نَبَتَ ، وإلى جهة صاحبه فى التتايُع *والتبرع وفى النزوع والثبات ، وإلى قِحته عند التقريع وإلى حيائه عند التعريض وإلى فطنته عند *الرشق والتودية . فإنّ فضل الفطنة ربما دلّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . (*)فكل ذنبٍ كان سببه الدالّة وضيق *صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدّة مِرارٍ ، *من جهة تأويل أو من جهة *غلطٍ فى المقادير أو من طريق <*فرط> الأَنَفَة وغَلَبة طباع الحَمِيّة *من بعض الجفوة أو لبعض *الأثرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زيّن له من عمله ، وأنه مُقصَّر به مؤخّر عن مرتبته ، أو كان مُبلغًا عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه ، فإذا كانت ذنوبه من هذا

---

(٣) غرر ، صححنا : غرور ⊙ — (٤) باقدار ، صححنا : باقرار ⊙ — (٦) الاقدار صححنا : الأقدام ⊙ — (٨) لعل الصواب : التسرع — (١٠) كذا ولعلها : الرمز والتورية — (١٢) الصدر وعلو الطباع ب — [من جهة تأويل] ب — (١٣) الغلط ب — <فرط> ب — (١٣-١٦) [من بعض الجفوة ... ممتنع فيه] ب — (١٤) الأثرة ، صححنا : الأثوة ⊙

(*) (١١ — ص ٦٧ ، ٢) فكل ذنب ... حليم : رواية ب ٨-٩

الشكل وعلى هذه الأسباب وفى هذه المجارى ، فليس يقف عليها كريم < ولا يلتفت لها حليم > . ولست أسميه بكثرة معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه وعلمه غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع للكظم والقدرة والفهم . فإذا وجدتَ الذنب بعد ذلك لا سبب له إلّا البِغضة ، فلو لم ترضَ لصاحبه بعقابٍ دون قعر جهنم ، لعذَرك كثير من العُقلاء ولصوّب رأيك عالم من الأشراف . ومتى كانت علّته طبيعة الداء وخُلقه الشرارة والتسرّع ، فاقتله قتلَ العقارب وأدمغه دمغَ رؤوس الحيّات . وإذا كان ممن لا يُسيء فيك القولَ ولا يرصدك بالمكروه ، إلّا لتعطيه على الخوف وتمنع عِرضك من جهة التقيّة ، فامنعه جميل رفدك واحتلْ فى منعه من قبل غيرك ، فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة وأعظمته من هذه الحكومة ، فقد شاركته فى سبّ نفسك واستدعيتَ الألسنةَ البَذيئة إلى عِرضك وكنتَ عوناً لهم عليك . وكيف تُعاقبه على ذنبٍ لك شطرُه وأنت فيه قسيمُه ، إلّا أنّ عليك غُرمُه وله غُنمه

(*) ومِن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحطّ عن الحسود نصف عقابه وأن تقتصر < منه > على < بعض > مقداره ، لأنّ ألم حَسَده لك قد كفاك مؤونة شطر غيظك عليه

وأمّا الوادّ فلا تعرض له البتة < ولا تلتفت لِفتَه > ولو أتى على الحرث

---

(١) < ولا يلتفت لها حليم > ب — (٩) التقية ، صححنا : النقية ⊙ — (١٣) قسيمه ، صححنا : قسمه ⊙ — (١٤) يحط من ب — (١٥) يقتصر على مقداره ⊙ — (١٦) شطر ب : سطو ⊙ — (١٧) فأما ب — < ولا تلتفت لفته > ب

(*) (١٤-٦٨ ، ٣) ومن العدل ... قوله : رواية ب ١٠

والنسل وجنى على الروح والقلب ، ولا تغترّ بقوله إنّى وادّ ولا تحكم له بدعواه : إنى جدّ وامق ، وأنظر أنت فى حديثه وإلى مخارج لفظه وإلى لحن قوله(*) وإلى طريقتـه وطبيعته وإلى خُلقه وخليقته وإلى تصرّفه وتضمّنه وإلى توقّفه وتهوّره ، وتأمّل مقدار جزعه من قلة اكتراثه وأنظر إلى غضبه فيك ولك وإلى انصرافه عمّن انصرف عنك وميله إلى من مال إليك وإلى تسلّمه من الشرّ وتعرّضه له وإلى مُداهنته وكشف قناعه . بل لا يقضى له بجماع ذلك ما كان ذلك فى أيّام دولتك ومع إقبالٍ من أمرك ، وإن طالت الأيّام وكثرت الشهود حتى تنتظم الحالات وتستوى فيه الأزمان . نعم ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبّتك ومحنوة على نصيحتك بالعِلَل التى توجب الأفعال والأسباب التى تسخر القلوب للمودّات ، كالعلل الثابتة فى الصنيعة والأسباب الموجودة مع مولى العَتاقة . فإنّ عللهما خلاف علل مولى الكلالة ، وخلاف علل الصديق الذى لم يزل يرى أنه مثلك وأنه يستوجب منك استيجابك ، ولا سيّما إذا كانت الصنيعة أنت ابتدأتها وأنت أبو عُذرتها . فإن أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ومع توافيها إليه ، ولم تقض له بأقصى النهاية مع ترادُف هذه الأسباب وتكامُل هذه الدلائل وتعاوُن هذه البرهانات ، فكل خبرٍ بيّنة زور وكل دلالة فاسدة . وقد قال الأول : دلائل الأمور أشدّ تثبيتاً من شهادات الرجال . إلّا أن يكون فى الخبر دليل ومع الشهادة برهان ؛ لأنّ الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدل ، وشهادة الإنسان

(١-٢) [ولا تحكم ... وامق] ب — وفى لحن ب — (٤) وتصميه ب

لا تمتنع من ذلك وليس معها أمان من فساد ، ما كان الإمكان قائماً

وبعد ، متى صار اختيار النخل على الزرع يُفقد الإخوان ومتى صار تفضيل الحَبّ وتقريظ التمر يورث الهجران ، ومتى تميّزوا هذا التمييز وتهالكوا هذا التهالك ومتى صار تقديم النخلة مِلّةً وتفضيل السنبلة *نِحلةً ، ومتى صار الحكم للنعجة نَسَبًا وللكرمة صهراً ، *ومتى تكون فيها دِيانة وتستحكم فيها بصيرة وتحدث عنها حَميّة

وقد كنا نعجب من حرب البسوس في ضرع نابٍ ومن حرب بُعاث في مِخرف تمرٍ ومن حرب غطفان في سبق دابّة ، فجئتنا أنت بنوعٍ من العجب أبطلَ كلَّ عجب وآنسَنا بكل غريب وحسّن عندنا كل قبيح وقرّب عندنا كل بعيد . فإن جهلتُ — أعزّك الله — غضبك فمثلي جهل ما لا علة له ، وإن عجزتُ عن احتمال عقابك فمثلي ضجّ مما لا يُطيق حمله ، ولا عارَ على جازع إلّا فيما يمكن في مثله الصبر ولا لومَ على جاهل فيما لا ينجح في مثله الفكر وليس هذا أوّل شَرَكٍ نصبته ولا أوّل كيدٍ *أرغته ، ولا هي بأوّل زُبيةٍ غطّيتها وسترتها وحيلةٍ أكمنتها وربصتها . وقد كانت التقيّة والاقتصاد أسلم ، بل كان العفو أرحم والتغافل أكرم . ولا خير في عقوبةٍ تُشمت العدوّ القادم ويُنادي بها العدوُّ الحادث ، والأناة أبلغ في الحزم وأبعد من الذمّ وأحمد مغبّةً وأبعد من خُرْق العجلة . وقد قال الأول : عليك بالأناة فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُه أقدر منك على ردّ ما قد أوقعته . *وقد أخطأ من قال :

---

(٤) نحلة ، صححنا : محنة ⊃ — (٥) ومتى ⊃ — (١٣) ارغتة ⊃ — (١٨) فقد ⊃

قد يُدرِك المتأنّى بعضَ حاجته ... وقد يكونُ مع المستعجل الزَّلَلُ

بل لو قال : والمتأنى بدركِ حاجاتِه أحقّ والمستعجل بفَوتِ حاجاتِه أخلق ، لكان قد وفّى المعنى حقّه وأعطى اللفظ حظَّه ، و <إن> كانَ القولُ الأوّل موزوناً والثانى منثوراً . ولولا أنه اشتقّ المستعجلَ من العَجَلة لما قرَنه بالمتأنّى ، وينبغى أن يكونَ الذى غلّطه قولُهم : رُبَّ عجلةٍ تَهَبُ رَيْثاً ، فجعلَ الكلامَ الذى خرج جواباً عندمايعرضُ من السبب كالكلامِ الذى خرج ارتجالاً ، وجعله صاحبُه مَثَلاً عامًّا . فإذا سُمّيتَ العمل عجلةً ورَيْثا فاقضِ على الريث بكثرة الفوت وبقدر ذلك مِن العجز ، وعلى العجلة بقلّة النُّجح وبقـدر ذلك مِن الخُرق . والريثُ والأناة فى بلوغ الأمل وإدراكُ النعمة كانتهاز الفرصة واهتبال الغِرّة ، والأناة وإن طالت وانتهاز الفرصة وإن كان فى غاية السرعة ، فليس من جنس العجلة . (*)ورُبّتَ كلمةٍ لا توضَع إلّا على معناها الذى جُعلت حظَّه وصارت هى حقّه والدالّة هى عليه دون غيره ، كالحزم والعلم والحلم والرفق والأناة والمدارة والقصد والعـدل والانتهاز والاهتبال وكاليأس والأمن وكالخُرق والعجلة والمداهنة والتسرُّع والغلوّ والتقصير . ورُبّتَ كلمةٍ تدور مع خُلّتها وتتقلّب مع جارتها وبإرادة صاحبتها وعلى قدر ما تقابل من الحالات وتلاقى من الأسـباب ، كالحُبّ والبُغض والغضب والرِضا والعزم والإرادة والإقبال والإدبار والجِدّ والفتور ، لأنّ هذا الباب الأخير يكون

(٢) افوت ه — (٣) وكان ه — (٩) وادراك ه — (١٠) والمناة ه — لعله سقط بعد « وإن طالت » : <فليست من جنس الريث> — (١٢) والدالة [هى] عليه م — كالعزم والحلم والعلم م — (١٣) والابتهال م — (١٤) ورب م — (١٥) مع واصلتها م — جاراتها ه — صاحبها م — (١٧) والإرادة ، كذا ه م — والفتوة ه

(*-*) (١١ — ص ٧١ ، ٦) وربت كلمة ... ونبل صوابه : رواية م ٤

في الخير والشرّ ويكون محموداً ويكون مذموماً . وصاحب العجلة — *أعزّك الله — صاحب تغرير ومخاطرة : *إن ظفر لم يحمده *عالمٌ وإن لم يظفر قطعته الملاومُ . والريث أخو المَعجزة ومقرونٌ بالحَسرة وعلى مَدرَجة اللائمة . وصاحب الأناة *إن ظفر نفع غيره بالغُنم ونفع نفسه بثمرة العلم ، *وطاب ذكره ودام شكره وحُفظ فيه ولدُه ، وإن حُرِم فمبسوطٌ عُذرُه ومُصوَّبٌ رأيه ، مع انتفاعه بعلمه وما يجدُ من عِزّ حَزمه *ونبل صوابه(*) ، ومع علمه بالذي له عند العقلاء ويعذره عند الأولياء والأعداء

وما عندي لك إلّا ما قال الدهقان لأسَد بن عبد الله — وهو على خُراسان — حين مرّ به وهو يدهق في حَبّه : إن كنتَ تُعطي مَن ترحم فأرحم مَن تظلم . إنّ السموات تنفرج لدعوة المظلوم ، فاحذر مَن ليس له ناصر إلّا الله ، ولا جُنّة إلّا الثقة بنزول التغيُّر ، ولا سلاحَ إلّا الابتهال إلى مولًى لا يعجزه شيء . يا أسَدُ إنّ البغي يصرع أهله ، وإنّ الظُلم مصرعُهُ وَخيمٌ ، فلا تغترّ بإبطاء العِقابِ من ناصرٍ متى شاء أن يُغيث أغاثَ ، وقد أملى لقوم كي يزدادوا إثماً . وجميعُ أهل السعادة إمّا سالمٌ من ذَنبٍ وإمّا تاركٌ الإصرار . ومَن رَغب عن التمادي فقد نال أحدَ الغُنمَين ، ومَن خرجَ من السعادة فلا غاية له إلّا دار *الشِقْوَة . وسَواءٌ — جُعِلتُ فِداكَ — ظلمتَ بالبطش والغَشم *أو ظلمتَ بالدَحسِ *والدسّ ، فشاوِر لُبّك ، وناظِر حَزمك ، وقِف قبل الوثبة ، واحذر

(١ - ٢) أبقاك الله م — (٢) وان ظفر ن — عاقل م — (٤) وان ظفر ن — واطاب ذكره دوام شكره ن — (٦) وقبل صوابه ن — (١٦) الشقوة ، صححنا : الندوه ن — (١٧) لعل الصواب : الدعس

زَلّة العالِم . وقد قال صاحبكم : مَن استشار الملالة وقلّد طبيعته الاستطراف وجعل الخطرةَ ذنبًا والذنب ذنوباً ومقدارَ الطرفة إصراراً والصغيرَ كبيراً والقليل كثيراً ، "عاقب على المتروك الذى لا يُعبأ به وبلغ بالبطش إلى حيثُ لا بقيّةَ معه ، ورأى أنّ القطيعة التى لا صِلة معها والتخليج الذى لا تجمُّل معه الحزمُ المحمود ، وأنّ الاعتزام فى كل موضع هو الرأى الأصيل . وقال أيضاً : (*)مَن" كانت طبيعته مأمونةً عليه عند نفسه ، وكان هواه رائدَهُ الذى لا يكذبه والمتأمّر عليه دون "عقله ، "ولم يتوكّل لما يهواه على ما لا يهواه" ، ولم ينصر تالدَ الإخوان على الطارف ، ولم يُنصف "المملول المبْعَد من المستطرف "المُقرَّب ، ولم يَخَفْ أن "تجتذبه العادةُ وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُجَجهما ويُصوّرها فى كتابٍ "مقروءٍ أو لفظٍ مسموع ، ثم يعرضهما على جهابذة المعانى وأطبّاء أدواء العقول ، على ألّا يختارَ "إلّا مَن لا يدرى أىّ النوعين يبغى "وعلى أيّهما يُحامى ، وأيّهما داؤهُ" . فإن لم يستعمل ذلك ، "بما فضل له مِن سُكر سُوء العادة" ، لم يزل متورّطاً فى الخطأ مغموراً "بالذمّ

سمعتُك وأنت تريدنى وكأنّك تريد غيرى ، "أو كأنك تُشير علىّ من غير أن "تَنَصَّنِى ، وتقول : إنّى لأعجب ممّن ترك دفاتر عملِه متفرّقةً

(٣) وعاقب ت — (٦) ومن كانت م — (٧) حقه م — (٧ - ٨) ولم يتوكل لما يهواه ت ، ولم يتوكل لما لا يهواه على ما يهواه م — (٨) المملول : المملوك ت م — (٩) والمقرن م — تجذبه م — (١٠) مقروء صححنا : مفرد ت ، مقرن م — (١١-١٢) إلا من [لا] يدرى أى النوعين يتق و [على] أيهما يحامى وأيهما يداوه وأيهما دواؤه م — وعلى ، لعل الصواب : وعن — (١٣) [بما فضل . . . العادة] م — بالذنب م — (١٤) أو كأنك م : وكأنك ت — (١٥) تعصى ت م

(*-*) (٦ - ص ٧٣ ، ٧) ومن كانت ... فى الضعف قوة : رواية م .

*مبثوثةً وكراريسَ درسِه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتخرُّم وكيف لا يمنعها من *التفرُّق ، وعلى أنّ الدفتر إذا انقطعت حِزَامته وانحلَّ *شِداده وتخرّمت رُبُطه ولم يكن دونه وِقاية *ولا جُنّة تفرّق ورقه ، *وإذا تفرّق ورقه *اشتدّ جمعُه وعسر نَظْمُه وامتنع تأليفه ، *وربما ضاع أكثره . والدَفّتان أجمع وضمُّ الجلود *لها أصوَنُ *والحَزم لها أصلح . وينبغى للأشكال أن *تنظم وللأشـــباه أن تؤلَّف ، فإنّ التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حُسناً والاجتماع يحدث للمتساوى فى الضعف قوةً(*) . فإذا فعلتَ ذلك صِرتَ متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ، فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها . وإذا كانت منظومةً ومعروفة المواضع معلومةً ، لم تحتج إلى تقليب القماطر على كثرتها ولا تفتيش الصناديق مع تفاوُت مواضعها ، وخَفَّت عليك مؤونتها وقلّت فـكرتك فيها ، وصرفتَ تلك العناية إلى بعض أمرك وادّخرتَ تلك القوة لنوائب غيرك . وعلى أنّ ذلك أدلُّ على حُبّك للعلم واصطناعك الـكتب ، وعلى حُسن السياسة والتقدُّم فى إحكام الصناعة . وقلتَ : لأمرٍ ما جمعوا أسباع القرآن وسُوَرَه فى مُصحفٍ ، ولم يَدَعوا ما فيه مُفرَّقاً فى الصدور ولا مُبَدَّداً فى الدفاتر ومفرّقاً فى القماطر ، على ذلك أجمعَ المسلمون والسابقون الأوّلون والأئمة الرشـيدة والجماعة المحمودة ، فتوارثه خَلَفٌ عن سَلَفٍ وتابعٌ عن سابق وصغيرٌ عن كبير وحديثٌ عن قديم . ولم أشكّ فى أنها نصيحةُ حازمٍ ومشورةُ وامقٍ ،

(١) [مبثوثة] م — (٢) التحرق م — (٣) سداده م — ولا <دونه> جنة م — (٣ - ٤) و [إذا تفرق ورقه] اشتد م — (٤) و [ربما] ضاع م — (٥) إليها أصون ه — والحرز ه — (٦) تنظم <وللدفتان> ه

أو رأىٌ حَفَرَ أو حكمةٌ نبغَتْ أو صدرٌ جاشَ فلم يُملك أو علمٌ فاضَ فلم يُرَدّ ، استعمله مَن استعمله وتركه مَن تركه . فلمّا أخذتُ بقولك وصِرتُ إلى مشورتك ، وأكثرتُ حمدَ الله على إفادتك من العلم وحظِّ *عنايتك من النقل ، وجمعتُ البعضَ إلى البعض والشكلَ إلى الشكل ، وتقدّمتُ فى استجادَةِ الجلود وفى تمييز الصُّنّاع وفى تخيُّر الساعات ، وغَرِمتُ المالَ وشغلتُ البالَ ، وجعلتُها مُصحفاً مُصحفاً وأجلتُها صِنفاً صِنفاً ، ورأيتُ أنّى قد أحكمتُ شأنى وجمعتُ إلىّ أقطارى ، ورأيتُ أن أنظرَ فيها وأنا مستلقٍ ولا أنظرَ فيها وأنا مُنتصِب ، استظهارًا على تعب البدن ، إذ كانت الأسافلُ مُثقَلةً بالأعالى ، وإذ كان الانتصابُ يُسرع فى إدخال الوَهَن على الأصلاب ، ولأنّ ذلك أبقى على نُور البصر وأصلحُ لقوّة الناظر ، *إذا كلّ واحدٍ من هذه المصاحف قد أعجز يدى بثِقَل جِرمه وضيّق صدرى بجفاء حجمه ، وإذا ثَقُل أنكأ الصدرَ وأوهنَ العَظمَ . وإذا أنا إن نظرتُ فيها وأنا جالسٌ سَدِرَت عينى وتقوّس ظهرى واجتمع الدمُ فى وجهى وأكرهتُ بصرى على غير جهته وأجريتُ شُعاع ناظرى فى غير مُجراه . وقد علمتَ — أبقاك الله — مع خِبرتك بمصالح الأمور ومواقع المنافع والمضارّ ثم بمصالح العباد والبلاد ، أنّ من كان على مَقطع جبلٍ أو على شُرُفات قصرٍ ، فأراد رُؤية السماء على بُعدها وجد ذلك على العين سهلاً خفيفاً ، وإن أراد أن يرى الأرض على قُربها وجد ذلك على العين عِبأً ثقيلاً . فإن بدا لى أن يقابلَ عينى به العبدُ أو تواجهَنى به الأَمَةُ كلّفتُ أخرقَ الناس كَفًّا وأقلّهم وَفقًا وأكثرهم التفاتًا وأحضرهم نُعاساً وأقلّهم على حالٍ واحدةٍ ثباتاً

(٣) عناية ⊃ — (١٠) إذا ، مصححا : اذ ⊃

وأجهلهم بمقدار الموافقة ولمقادير المقابلة وبحطّ اليد ورفعها وإمالتها ونصبها ، ثم رأيتُ فى تضجُّرهم وتكرُّههم وفرارهم منه ما صيّر تجشُّمى لثِقَل وزنه ومقاساتى لجفاء حَجمه أهونَ على يدى وأخفَّ على قلبى . فإن تعاطيتُه عند ذلك بنفسى فشقاءٌ حاضرٌ وإن ألزمته غيرى فغيظٌ قاتلٌ ، وحتى صارت الحال فيها داعيةً إلى ترك درسها والمُعاودةِ لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة والمنافع الجامعة ، ومِن شَحذِ الطبيعة وتمكين حُسن العادة . ولو لم يكن فى ذلك إلّا الشُغل عن خَوض الخائضين والبُعد عن لهو اللاهين ، ومن الغِيبة للناس والتمنّى لِما فى أيديهم ، لقد كان نفع ذلك كثيراً وموقعه من الدين والفرض عظيماً . ومتى ثقل الدرس تثاقلت النفس وتقاعست الطبيعة ، ومتى دام الاستثقال أحدث الهِجران ، وإذا تطاول الكدّ رسخ الزُهد ، وفى ترك النظر عَمَى البصر ، وفى إهمال الطبيعة كلالُ حدّ الطبيعة ، وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنه على قدر غريزة العقل تصحّ الجوانح وتسقم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرّك الجارحة ويتصرّف اللسان ، ومع قِلّة الحركة وبُعد العهد بالتصرّف يحدث العىّ ويظهر العجز ويُبطئ الخاطر ، ومع ذهاب البيان يفسد البرهان ، وفى فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين . فقد بلغتَ ما أردتَ ونلتَ ما حاولتَ ، فحسبك الآن من شجٍّ مَن يأسوك ومن قتل من يُقتَل فيك

(*) جُعلتُ فِداك ، إنه ليس يُومِى منك بواحدٍ وأنا على عقابك أوحدُ ،

---

(١) فدفعها ك — (١٣) لعلها : الجوارح — (١٥) البيان ، صححنا : البرهان ك — (١٨) [إنه] ب — يُومى ؟ — واحدا ب — فى عقابك واحد ب

(*) (١٨ - ص ٧٦ ، ٣) جعلت ... مطورة : رواية ب ١١

وليس يُنجيني منك مَعقلُ وَعِلٍ ولا مَغارةُ سَبُعٍ ، ولا قعرُ بحرٍ ولا رأسُ طَودٍ ، <ولا سَنَّى> ولا دَغَلٌ ، ولا دخلٌ ولا نَفقٌ ، ولا مَغارةٌ ولا مَطمورة . وليس يُنجيني منك إلّا مفازة المهلّب ، فإن أعرتَني قلبَه وعلّمتَني حيلتَه وأمكنتني من سكّينه ، وإلّا فأنا أوّل مَن ابتلعتَه تلك الحيّةُ . (*)ولا والله إنّ بي قوة على الثُعبان فكيف التِنّين ، <ولا على القُزَة فكيف الأَصَلَة> . أعفِني من حيّة المهلّب ثم اُقتلني أيّ قِتلةٍ شئتَ . إن احترستُ منك ألفيتُ لنفسي كدًّا شديداً وغمًّا طويلاً ، وطال اغترابي وافتراق الألاّف ، وتعرّضتُ للعدوّ وتحرّشتُ بالسباع ، وإن استرسلتُ إليك لم تَرَ أن تقتلني إلّا شرّ قِتلةٍ وآلمَها ولم تُعذّبني إلّا بأشدّ النِقَم وأطولها ، ولو أردتَ ذَبحي لاخترتَ الكايل على المُرهَف والتطويل على التذفيف ، حتى كأني علّمت عليك شاه مات أو أكلتُ سَبعةً وأطعمتُك واحدةً .

ولقد تقدّمتَ في المكر واستظهرتَ عليّ في الكيد ، حتى تولّيتَ ذلك في صِغار كتبي وفيما لا تحفل به من دوام أمري ، وعلمتَ أنّ الدرس لليل وأنّ الا ... ... للنهار ، وأنّ الكتاب لا يُقرأ ليلاً إلّا والنيران

(١) مغار ب — (٢) <ولا سنى> : كذا في ب فقط ويظهر أنه محرف — وعل (= وغل) ب — ولا وحل <ولا لنق> ولا نفق ب — (٣) مغار ب — (٥) أرى قوة ب — (٥ - ٦) <. . .> : كذا في ب فقط — (٨) وفراق ب — للسباع ب وإن ب : فان ح — (٩) والأمها ب — (١٠) [ذبحي] ب — الكايل المرتدف ب — والطويل على الدقيق ب — (١١) عملت ب — شاقمان ب — عشرة ب ، ولعل الصواب : تسعة — (١٥) بياض كلمة أو كلمتين في الأصل ، وعلى الهامش : حراو به (؟) ، ولعل الصواب : « وأن الاعراض عنه » أو ما يشبهه

(*) (٥-١٢) ولا والله ... واحدة : رواية ب ١٢

زاهرة والمصابيح مُقرَّبة ، وعلمتَ أنّ كلّ مَن ضعف بصرُه وكَلّ نظرُه ، فإنه أبداً أقربُ مصـــباحاً وأعظمُ ناراً ، *وأنّ المحرور المحترق والممرور الملتهب واليابس المتهافت ، إذا كان صاحب كتبٍ ودرسٍ *فإنه لا يجد بُدًّا من الصبر على ما يُحرّقه ويعمّيه ، *أو الترك للقراءة فيها والتعرُّض لها ، فخيّرتنى بين العمَى والجهل ، وما فيهما حظٌّ لمختارٍ

وقلتَ : إذا *سَخن بدنُه سُجِن بوله ، وإذا سُجن بوله جَرح مثانتَه وأحرق كُليتَه وطبخ فضول غذائه وجفّف ما فضل عن استمرائه ، فأحاله *حَصًا قاتلاً وصَخراً جامداً ، وهو دقيق القضيب ضيّق الإحليل ، *فإذا حَصاه يورثه الأسر ، وفى ذلك الأسر تلفُ النفس أو غاية التعذيب . وقلتَ : فإن ابتليتُ بطولِ عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب عنّا فقد كفانا مؤونة الحيلة فى أمره

جُعلت فِداك ، ما هـذا الاستقصاء وما هذا البلاء ، وما هذا التتبّع لغوامض المسألة والتعرُّض لدقائق المـكروه ، وما هـذا التغلغل فى كل شىء يُخمِل ذِكرِى وما هذا الترقّى إلى كل ما يَحُطّ من قدرى ، وما عليك أن تـكون كتبى كلها من *الورق الصينىّ ومن الكاغد الخُراسانىّ . قُل لى لِمَ زيَّنتَ النَسخَ فى الجلود ولِمَ حثثتنى على الأدَم ، وأنت تعلم أنّ الجلود جافيـة الحجم ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلَت وإن كان يومٌ لَثِقٍ استرخَت ، ولو لم يكن فيها إلّا أنها تُبغِّض إلى أربابها نزولَ الغيث وتُـكرِّه إلى مالـكيها الحَيَا لـكان فى ذلك ما كفى ومنع منها ، *وقد علمتَ أنّ الورّاق لا يخطّ فى

(٢) فان ن — (٣) انه ن — (٤) والترك ن — (٦) سجن ن —
(٧) حصا ن — (٨) فارى خصاه ن — (١٠) ورق الصينى ن — (١٩) قد ن

تلك الأيّام سطراً ولا يقطع فيها جِلداً . وإن نَدِيَت فضلاً عن أن تُمطَر وفضلاً عن أن تغرق ، استرسلت وامتدّت ، ومتى جفّت لم تَعُدْ إلى حالها إلّا مع تقبُّضٍ شديد وتشنُّجٍ قبيح . وهي أنتن ريحاً وأكثر ثمناً وأحمل للغشّ : يُغَشّ الكوفيُّ بالواسطيّ والواسطيّ بالبصريّ ، وتعتّق لكي يذهب ريحها وينجابَ شَعرها ، وهي أكثر عُقَداً وعُجَرًا وأكثر خَباطاً وأسقاطاً ، والصُفرة إليها أسرع وسرعة انسحاق الخطّ فيها أعمّ . ولو أراد صاحبُ علمٍ أن يحملَ منها قدرَ ما يكفيه في سَفَره لما كفاه حِملُ بعيرٍ ، ولو أراد مثلَ ذلك من القُطنيّ لكفاه ما يحملُ مع زاده . وقلتَ لي : عليك بها فإنها أحمل للحكّ والتغيير ، وأبقى على تعاوُر العارية وعلى تقليب الأيدي ، ولِرَدِيدِها ثمنٌ ولطِرْسها مرجوعٌ ، والمُعاد منها ينوب عن الجُدُد . وليس لدفاتر القُطنيّ أثمانٌ في السوق وإن كان فيها كلُّ حديثٍ طريف ولطفٍ مليح وعِلمٍ نفيس ، ولو عرضتَ عليهم عِدلَها في عَدَد الورق جلوداً ، ثم كان فيها كلّ شِعرٍ بارد وكلّ حديث غثّ ، لكانت أثمن ولكانوا عليها أسرع . وقلت : وعلى الجلود يُعتمدُ في حساب الدواوين وفي الصِكاك والعهود وفي الشروط وصُوَر العقارات ، وفيها تكون نموذجات النقوش ومنها تكون خرائط البُرُد ، وهنّ أصلح للجُرُب ولعِفاص الجَرّة وسِداد القارورة . وزعمتَ أن الأَرَضة إلى الكاغد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفارة إلى الجلود أسرع ، بل زعمتَ أنّها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنتَ سببَ المضرّة في اتّخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنتَ سبب البليّة في تحويل الدفاتر

(١ - ٢) على أن ط (مرتين) — (٩) وأبقاه ط

الخفاف فى المحمل إلى المصاحف التى تُثقل الأيدى وتحطِم الصدور وتقوّس الظهور وتعمى الأبصار . وقد كان فى الواجب أن يدَعَ الناسُ اسمَ المُصحف للشىء الذى جَمَع القرآن دون كلّ مجلّد ، وألّا يروموا جمع شىء من أبواب التعلم بين الدفّتين فيُلحقوا بما جعله السلفُ للقرآن غيرَ ذلك من العلوم

دَع عنك كلّ شىء . ما كان عليك أن يكون لى ولدٌ يُحيى ذكرى ويحوى ميراثى ، ولا أخرجُ من الدنيا بحسرتى ، ولا يأكله مُراء يرصُدنى وابن عمٍّ يحسدنى ، ولا يرتعُ فيـــه المُعَدّلون فى زمان السوء ، ولا تُصطنع فيه الرجال ويقضى به الذِمام ، فقد رأيتَ صنيعهم فى مال المفقود والمناعة والوارث الضعيف ومن مات بغير وصيّة

جُعلتُ فداك ، إنّ النفوس لا تجود لمولى الكلالة بما تجود به لأولاد الأصلاب وما مسّ تلك الأصلاب ، لأنّ الرحمَ الماسّة والقرابة الملتصقة واللُحمة الملتحمة وإن أمّلت التركة ونازعت إلى الورِث فمعها ما يأطُرها ويثنيها ويحزُنها ويُبكيها ويحرّك دمَها ويستغزر دمعها . وقد يَشفع للولد إلى أبيه حال أبيّه كانت من أبيــه وابن العمّ الذى ليس بالبعيد فيحتك من حسده وليس بالقريب المحنوّ على رحمه . وسببه الجاذب له إلى تمنّى مماتى أمتن من سببه إلى تمنى بقائى ، فهو إلى الحال الموجبـــة للقسْوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرقّة والعطف ، وليس ينصُرك إذا نصرك ولا يُحامى عليك لقرابته منك ، ولـكن لعلمه بأنه متى خذلك حلّ به

(٧) ولا يرقع ى — ولا يصطنع فيه الرجال ى — (٨) والضاعة ، لعل الصواب : و <مولى> التباعة — (١٢) الورث ى — (١٣) ويثبتها ى — ويحول ى — (١٤) كذا فى ى وظاهر أنه محرف — لعل الصواب : فيفتكّ — (١٥) وسبب الجاذب ى

ضَعفَك وأجترأ بعد ضَعفِك عليه عَدوُّه ، فهو يريد بنصره مَن لا يجب عليه شكره ، ويُقوِّى ضعفَ غيره يدفع الضعف عن نفسه

جُعلت فِداك ، ما كان عليك من بُنَىّ صغيرٍ يكون لى ، ولا سيّما ولستُ عندك ممّن يُدرِك كسبه أو تبلغ نصرته أو يُعايَن برُّه أو يؤمَّل إمتاعه . وما كان عليك مع كِبَر سِنِّى وضعف رُكنى أن يكون لى ريحانةً أشمها وغرةً أضمها ، وأن أجد إلى الأمانى به سبباً وإلى التاهّى سُلَّما ، وأن تكثر لى من جنس سرور الحالم وبقدر ما يُمتع به راجى السراب اللامع ، حتى حبَّبتَ قِصرَ عمرى إلى وليّى وشوّقته إلى ابن عمّى ، وحتّى زدتَ فيما عنده مع كثرة ما عنده ، وحتى صيّرتَ حُبَّه لموتى إلى حبّ موته وتأميلُ مالى *<إلى> تأميل فقره ، وحتى شغلتنى *عمّن كان يشغلُ عدوّى عنّى . وسواءٌ أعِبتَ علىَّ أن لا يكونَ لى ولد قبل أن يكون ، أو عِبتَ علىَّ أن لا يكون بعد أن كان — فإنما يعذّب الله على النيّة والقصد وعلى التوخّى والعمد — * كما أنه سواءٌ أن تحتال فى ألّا يكونَ لى مالٌ قبل أن أملكه أو احتلتَ فى ألاّ يكون بعد أنْ ملكتُه . وكنتُ لا أدرى ما كان وجهُ حُبّك لإعناتى وللتشييد بذكر تُراثى والتنويهِ باسمى ، ولا لِمَ زهّدتنى فى طلب الولد ورغّبتنى فى سيرة الرُهبان ، فإذا أنتَ لم ترفع ذكرى فى الأغنياء إلاّ لتعرُّض ذنبى للفقراء ، ولم تُكثر مالى إلاّ لتقوِّى العلّة فى قتلى ، فيالها مكيدةً ما أبعدَ غوْرَها ويالها حفرةً ما أبعدَ قعرَها ، (*)لقد جمع هذا التدبيرُ لطافةَ الشخص *ودِقة المسلك وبُعدَ الغاية*

---

(١٠) <إلى> سقط من ه — (١٣) وكما ه — (١٩) وبعدالغور ودقة المسلك ب

(*) (١٨- ص ٨٢ ، ٤) لقد جمع ... تعاشر : رواية ب ١٣

والله لو دبّرها الإسكندرُ على دارا بن دارا ، وأستخرجها المهلّب على سفيان ابن الأبرد ، ⁽²⁾وفتحت على هرثمة فى مكيدة خازم بن خزيمة ، ⁽³⁾ولو دبّرها لُقيمُ ⁽³⁾ابنُ لقمان على لقمانَ بن عادٍ ، ⁽³⁾ولو أذاعها قيس بن زُهَير على ⁽³⁾حِصن بن حُذَيفة ، ⁽⁴⁾ولو توجّهت لـكُهّان بنى أسـد على دُهاة قريش ، ⁽⁵⁾لقـد كان ذلك من تدبيرهم ⁽⁵⁾نادراً < بديعاً > ولكان فى مكايدهم شاذًّا غريباً⁽⁵⁾ ، وإنها لترتفع عن قَصير فى كيد الزّبّاء ⁽⁶⁾وعن جذيمة فى ⁽⁶⁾مشاورة قصير ، ⁽⁶⁾وما إخالها إلّا وتَدِقّ ⁽⁶⁾على ابن العاص وتغمُضُ على ابن هندٍ ويكلّ عنها أخو ثقيفٍ ويستسلم لها ابنُ سُمَيّة . هـــذا والله التـدبيرُ ، لا مخاريق العرّاف ⁽⁸⁾وتزاوير ⁽⁹⁾الكاهن وتهاويل ⁽⁹⁾الحاوى ، ولا ما ⁽⁹⁾ينتجها صاحبُ الزّرق (؟)⁽⁹⁾ ، بل تضلّ فيها رُقَى الهند وتقرّبها سَحَرة بابل

⁽¹¹⁾فلو كنتَ — ⁽¹¹⁾إذ أردتَ ما أردتَ وحاولتَ ما حاولتَ — رفعتَ قبل كلّ شىء المؤانسة ، ⁽¹²⁾ثم أبيتَ المؤاكلة ، ثم قطعتَ البِرّ ، ثم أذنت مع العامّة⁽¹²⁾ ، ثم أعملتَ الحِرمان ، ثم صرّحتَ بالجفوة ، ثم أمرتَ بالحجاب ، ثم صرمتَ الحبل ، ⁽¹⁴⁾ثم عاديتَ واقتصدتَ ، ثم من بعـد ذلك كلّه أسرفتَ واعتديتَ⁽¹⁴⁾ ، لـكنتُ واحداً ممن يصبِر ⁽¹⁵⁾أو يجزَع . فلعلّى كنتُ أعيش بالرِفق وأتبلّغ بحُشاشة النفس ⁽¹⁶⁾وأعلّل نفسى بالطمع الكاذب⁽¹⁶⁾ . ولـكنّ فُجاءات الحوادث

(٢) ودمحت ت ، وسحب ب — أو دبرها ب — (٣) [بن لقمان] ب — وأذاعها ب — حصـين ب — (٤) و [لو] توجهت ب — [لقد] ب — (٥) [بديعاً] ت ، نادراً <بديعاً> وشاذا غريبا ب — (٦) وعن ب . عن ت — مساورة ب — وتدق ب : ستدق ت — (٨) وتزاويق ت — (٩) الـكهان ب — الحان ب — ينتجها صاحب الدين ب ، ينتحلها صاحب الرى ت ، ونرجح أن يكون الصواب «الزّرق» أى الخدعة — (١١) ولو ب — إذ ، صححنا : إذا ت ب — (١٢) [ثم أبيت ... العامة] ب — (١٤) [ثم عاديت .. واعتديت] ب — (١٥ - ١٦) [أو يجزع ... الـكاذب] ب

وبَغتات البلاء ، لا يقوم لها الحجرُ القاسى ولا الجبَل الراسى ، ˚فلم تدع غايةً فى صَرفٍ ما بين طبقات التعـذيب إلّا أتيتَ عليها ولا فضول ما بين قواصِم الظهر إلّا بلغتَها˚ ، فقد مِتُّ الآن ˚فمع مَن تعيش ، < بل قد قتلتَنى فمَن الآن تُعاشر ! > . كما قال ديوست المغنِّى لـكِسرى حين أمر بقتله لقتله تلميذه ˚بلهبذ : قتلت أنا بلهبذ وتقتلنى ، فمن يُطرِبك ؟ قال : خَلُّوا سبيلَه فإنّ الذى بقى من عمره هو الذى أنطقه بهذه الحجَّة . ولـكنى أقول : قد قتلتنى فمع من تعيش ؟ أمعَ الشطرنجيين ؟ فقـد قال جالينوس : إياك والاستمتاع بشىء لا يعمُّ نفعُه

(*) [˚إنّ الـكلام إنّما صار أفضلَ من الصمت لأنّ نفع الصمت لا يكاد يعدو الصامتَ ونفع الـكلام يعمُّ القائلَ والسامعَ والغائب والشاهد والراهن والغابر . قالوا : وممـا يدلُّ ˚من فضلِ الـكلام على الصمت ˚أنك بالـكلام تُخبر عن الصمتِ وفضلِه ولا تخبرُ بالصمت عن فضل الـكلام . ولوكان الصمتُ أفضلَ لـكانت الرسالةُ صمتاً ولـكان عدمُ القرآن أفضلَ من القرآن ، وقد فرّق بينهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم وفصّل وميّز وحصّل حيث قال : رحِم الله أمرءاً قال خيراً فغنِمَ أو سكت فسلِمَ . فجعل حظّ السكوت السلامة وحدَها ، وجعل حظّ القول الجمعَ بين الغنيمة والسلامة ، وقد يَسلمَ من لا يغنم ولا يغنم إلّا من سَلِم]

(١-٣) [فلم تدع ... بلغتها] ب — (٣) فمن يعيش ب — (٤) < بل قد . . . تعاشر > ب — (٥) بلهبذ ت (مرتين) — (٩) إنما الـكلام ت — (١١) لعل الصواب : على فضل — لأنك بالـكلام ت

(*) نرجح أن الفصل من سطر ٩ (إن الـكلام) إلى سطر ١٧ (من سلم) ليس فى مكانه ولعله مأخوذ من رسالة أخرى للجاحظ

فأمّا الدوابّ فمن يضع المركَبَ الكريم إلى الصاحب الكريم ، ومَن يعدِل إمتاعَ بهيمة بإمتاع أديب ؟ قالت ابنةُ النعمان . لم نر فيما جرَّبْنا من جميع الأصناف أبلغَ فى خيرٍ وشرٍّ من صاحبٍ . ولما عزم ابنُ زيادٍ على الحُقنة بعد أن كان نفحّشَها قال له حارثةُ بنُ بدر : ما أجد أولى بتولِّى ذلك من الطبيب ، قال عُبَيد الله : كلا ، فأين الصاحب !

(*)والله لو نتجتَ فى كل عام ألف شَبديز وقهرتَ فى كل ليلة أربعة آلاف رَبْرَب وصار لك كل نهر المرك بدلاً من بعض نامك ، وأكلتَ رأس الجنيد بن حاق الأشيم واحتلت بين الغر من إفراط الشبق ، لما كان ينبغى لك أن تُعاملنا بهذه المعاملة ولا كان ينبغى أنْ تقتلنا هــذه القتلة . ولو اقتصرتَ من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدل ولو عفوتَ البتةَ لكان أمثل(*) . إنّ الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره ، ومتبدئ العقاب بعرضِ لجاج ، وليس يُعاقِب إلّا غضبانُ ، والغضب يغلب العزم على قدر ما مكّن ويحيّر اللُبَّ بقدر ما سلط ، والغضب يُصوِّر لصاحبه مثلَ ما يُصوّر السُّكرُ لأهله ، والغضبانُ يشغَله الغضب ويغلِى به الغيظ وتستفرغُه الحركة ويمتلئ بدَنه رِعدةً وتتزايلُ أخلاطُه وتنحلّ عُقَدُه ولا يعتريه من الخواطر إلّا ما يزيدُه فى دائه ولا يسمع مِن جليسه إلّا ما يكونُ مادّةً

(٦) الو نتجت ن — شبديز ب : سبدين ن — وقهرت ن : وأحبلت ب — (٧) الف ن ب — (٧-٨) [وصار لك ... الاشيم] ب — (٧) نهر المرك ... نامك : كذا ن ولم نوفق إلى تصحيحه ، راجع ص ٦٥ ، ٤ ؟ — (٨) واحتلت ... الشبق ن : واحملت ابن الغر مع إفراط السبق ب ، وكلتا الروايتين ظاهرة التحريف — (٩) [أن تعاملنا ... ينبغى أن] ب — تقتلنى ن — (١٠) مع <هذه> العقوبة ب — [لكان أعدل ... البتة] ب

(*-*) (٦-١١) والله ... أمثل : رواية ب ١٤

لفساده ، وعلى أنه ربما استفرغ حتّى لا يسمع واحترق حتى لا يفهم . ولولا أنّ الشيطانَ يريد ألاّ يخلوَ من عمله ولا يقصِّر في عادته ، لما وَسْوَس إلى الغضبان ولا زيّن له ولَمَا أغراه ولا فتح عليه ، إذ كان قد كفاه وبَلَغ أقصى مُناه . وليس يُصارع الغضبَ أيّام شبابه وغرب نابه شيء إلاّ صرَعه ولا يُنازعه قبل انتهائه وإدباره شيء إلاّ قهَره ، وإنما يُحتال له قبل هَيْجه ويُتوثَّق منه قبل حركته ويُتقدَّم في حسم أسبابه وفي قطع عِلله . فأمّا إذا تمكّن واستفحل وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرةً ومن أعوانه سَمعاً وطاعةً ، فلو سعطتَه بالتوراة ووجَرْتَه بالإنجيل ولددته بالزبور وأفرغت على رأسه القرآن إفراغاً وأتيتَه بآدم عليه السلام شفيعاً ، لما قصر دون أقصى قوّته ولتمنّى أن يعار أضعافَ قدرته . وقد جاء في الأثر : إنّ أقربَ ما يكونُ العبدُ مِن غضبِ الله إذا غضب . قال قتادة : ليس يُسكِّن الغضبَ إلاّ ذِكرُ غضبِ الرحمن عز وجل . وقال عمرو بن عُبيد : ذِكرُ غضبِ الربّ يمنعُ من الغضب . إلاّ أن يريد الذكر باللسان ، ويسمَّى المتوجد غضبانَ والذكورُ حقوداً

(*) فلا تقف — حفظك الله — بعد مُضِيِّك في عقابي التماساً للعفو عنّي ، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة لي . ولكن قف وقفة مَن يتّهم الغضبَ على عقله والشيطانَ على دِينه ، ويعلم أنّ للعقل خصوماً وللكرم أعداءً ، وأنّ من النَّصَف أن تنتصف لعقلك من خصمه وتنتصف لكرمك

(١) كذا ى ، ولعلها : استغرق — (١٤) غضبانا ى — (١٥) جعلني الله فداك ب — [في عقابي] ب — (١٦) في إفراطك ب — (١٧) وتعلم ب — (١٨) النصفة ب — و [تنتصف] لكرمك ب

(*-*) (١٥ - ص ٨٥ ، ٦) فلا تقف ... المعاني : رواية ب ١٥

من عدوّه ، وتُمسِك إمساكَ مَن لا يُبرِّئ نفسَه من الهوى ولا يبرِّئ الهوى من الخطأ ، ولا تُنكِر لنفسك أن تَزِلّ ولعقلك أن يهفو ، فقد زلّ آدم عليه السلام وهفا وعصى ربّه وغوى وغرّه عدوُّه وخدعه خصمُه وعِيبَ باختلال عزمه وسكون قلبه إلى خلاف ثِقَته ، هذا وقد خلقه الله بيده وأسكنه فى دار أمنه وأسجد له ملائكته ورفع فوق العالمين درجته وعلّمه جميع الأسماء بجميع المعانى(*) . ولا يجوز أن يعلّمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلّمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسمُ بلا معنًى لَغوٌ كالظَّرْف الخالى ، والاسم فى معنى الأبدان والمعانى فى معنى الأرواح ، اللفظُ للمعنى بَدَن والمعنى للفظ رُوح . ولو أعطاه الأسماء بلا مَعانٍ لكان كمَن وَهَب شيئاً جامداً لا حَرَكةَ له وشيئاً لا حِسَّ فيه وشيئاً لا منفعةَ عنده . ولا يكونُ اللفظُ اسماً إلاّ وهو مضمَّن بمعنًى ، وقد يكونُ المعنى ولا اسم له ولا يكون اسمٌ إلاّ وله معنًى . فى قوله جلّ ذكره : وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ، إخبارٌ أنّه قد علّمه المعانى كلَّها . ولسنا نعنى معانىَ تراكيبِ الألوان والطُّعوم والأرابيح وتضاعيفَ الأعداد التى لا تنتهى ولا تتناهى . وليس لِما فَضَل عن مقدار المصلحة ونهاية الوهم اسمٌ ، إلاّ أن تُدْخِله فى باب العلم فتقولَ شىء . ومعنى الأسماء التى تدور بين الناس إنّما وُضِعت علاماتٍ لخصائص الحالات لا لنتائج التركيبات . وكذلك خاصُّ الخاصِّ لا اسمَ له ، إلاّ أن تجعلَ الإشارة الموصولةَ باللفظ اسماً . وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ،

(١) ولا [يبرى] ب — (٢) و <لا> لعقلك ب — (٣) [عليه السلام] ب — و<قد> عصى ب — (٤) ثقته ب : نعته ﻫ — (٨) لمله : والأسماء — (١٨) اللفظ ﻫ

(١٢-١٣) سورة البقرة : ٣١

ولعمرى إنّها لتُحيطُ بها وتشتمل عليها . فأمّا العلوم المبسوطة فإنما تبلغ الأسماء مبالغ الحاجاتِ ثم تنتهى . فإذا زعمتَ أنّ الله تبارك وتعالى عَلَّمَ آدَمَ ٱلأَسْمَاءَ كُلَّهَا بمعانيها فإنما يعنى نهاية المصلحة لا غيرَ ذلك

(*) هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماوىّ وأنت أرضىّ ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحقّ بالقوة والفرع أولى بالضعف . فلستُ أسألك أن تمسك إلّا ريثما تسكنُ إليك نفسُك ويرتدُّ إليك ذِهنُك ، وحتى تُوازنَ بين شفاء الغيظ والانتفاعِ بثواب العفو(*) ، وترى الحِلم وما يجلب من السلامةِ وطيبِ الأُحدوثة ، وترى تصرُّم الغرض وما يُفضِى لأهله مِن فضل القوة . على أنّ العقلَ إذا تخلّص من سُكر الغضب أصابه ما يصيب المخمورَ إذا خرَج من سُكر شرابه والمنهزمَ إذا عاد إلى أهله والمبرسَمَ إذا أفاق من برسامه . وما أشكّ أنّ العقل حين يُطلق من إساره كالمقيّد حين يُفكّ من قيوده ، فإنه يمشى كالنزيف ويحجِل كالغُراب . فإذا وجب عليك أن تحذرَ على عقلك مخامرةَ داء الغضب بعد تخلُّصه وأن تتعمّده بالعلاج بعد مباينته له وتخلُّصه من يده ، فما ظنُّك به وهو أسير فى مِلكه وصريع تحت كَلكَله ، وقد غطّه فى بحره وغمره بفضل قوته

وقد زعموا أنّ الحسن حضر أميراً قد أفرط فى عقوبة بعض المذنبين ، فكلّمه فلم يحفِل بكلامه وخوّفه فلم يتّعظ بزجره ، فقال إنك إنّما تضربُ نفسك ، فإن شئتَ الآنَ فأقلّ وإن شئت فأكثِر . ومعاذ الله أن أقولَ لك كما قال الحسن لذلك الظالم المعتدى والمصمِّم القاسى . ولكنى أقول : أعلم

(١) فانها ق — (٨) لعله : الغيظ ، أو الغضب ؟

(*-*) (٤-٧) هذا ... العفو : رواية ب ١٦

أنك تضرب مَن قد جعلك من قتلِه فى حِلٍّ . وإن كان القتـلُ يحلُّ بإحلالِ المقتول ويَسقطُ عنه عِقابُه بِهبة المظلوم ، ولو أمكن فى الدين تواهُب قِصاص الآخرة فى الدنيـا ، وإن كان ذلك ممّا تجودُ به النفس يومَ الحاجـة إلى الثواب وإلى دفع العِقاب ، وكان الوفاء مضـمونًا ، لـكنتُ أوّلَ مَن أسمحَت بذلك نفسُه وانشرح به صدره

(*) جُعلتُ فداك ، أعلم أنى قد أحصيتُ جميعَ أسباب التعادى وحصّلت جميعَ علل التضاغن ، إلاّ علةَ عداوة الشـيطان للإنسان ، فإنّى لا أعرف إلاّ مجازها فى الجملة ولا أحقّ خاصّتها على التحصيل ، وعلى < كل > حالٍ فقد عرفتُهـا من طريق الجملة وإن جهلتُها من طريق التفصـيل . فأمّا هذا التجنّى فلم أعرفْه فى خاصٍّ ولا عامٍّ

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرابات وتحاسُـد الأشكال فى الصناعات ، ومن أمتن أسبابهم إلى الشرّ وأسرعها إلى المروءة والعقل وأقدحها فى العِرض وأحطّها على الدين ، التشاحُّ على المواريث والتنازُع فى تخوم الأرضين ، فإن اتفق أن يكون بين المتشاكلَين فى القرابة كان السـبب أقوى والداء أدوى ، وعلى حساب ذلك إن جُمعت هـذه الخصومة مع الجوار والقرابة واستواء الحظّ فى الصـناعة . ولذلك كتب عُمَرُ — رضى الله عنه — إلى قُضاته أن رُدّوا القراباتِ عن حر القضاء ، فإنّ ذلك يورث التضاغُن

ولم أعجب من دوام ظلمك وثباتك على غضبك وغلاظ قلبك ، ودُورُنا

---

(٥) ذلك ㉂ — (٨) | إلا] ب — < كل > : أضفناه ، وقد سـقط من ㉂ و ب — (١٠) فى عام ولا خاص ب — (١٧) كذا ㉂

(*–*) (٦–١٠) : رواية ب ١٧

بالعسكر متجاورة ومنازلنا بمدينة السلام متقابلة ، ونحن ننظر في علمٍ واحد ونرجع في النِحلة إلى مذهبٍ واحد ، (*)ولكن اشتدّ تعجّبي منك اليوم وأنا بفرغانة وأنت بالأندلس ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نِتاج ، وصناعتك جودة الخطّ وصناعتي جودة النحو ، وأنت كاتب وأنا أمّيّ ، وأنت خَراجيّ وأنا عُشْريّ ، وأنت زَرعيّ وأنا نخليّ . فلو كنتُ إذ كنتَ من بكر كنتُ من تميم كان لك إلى العداوة سببٌ وإلى المنافسة سُلّمٌ

(†)أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ، وأنت أصلع وأنا أنزع ، وأنت صاحب براذين وأنا صاحب حمير ، وأنت ركين وأنا عَجول ، وأنت تدبّر لنفسك وتقيم أَوَدَ غيرك وتتسع لجميع الرعيّة وتبلغ بتدبيرك أقصى الأمّة ، وأنا أعجز عن تدبير نفسي وعن تدبير أمَتي وعبدي ، وأنت مُنعِم وأنا شاكر ، وأنت مَلِكٌ وأنا سوقة ، وأنت مصطنع وأنا صنيعة وأنت تفعل وأنا أصِفُ ، وأنت مقدم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعتَ الرجالَ وناهضتَ الأكفاء ، لم تقُلْ بعد فراغك وانقطاع كلامك لو كنتُ قلت كذا كان أجود ولو تركتُ قول كذا لكان أحسن ، أمضيتَ الأمور على حقائقها وسلّمتَ إليها أقساطها على مقادير حقوقها ، فلم تندم بعد قولٍ ولم تأسف بعد سكوتٍ ، وأنا إن حكمتُ ندمتُ

(٤) المحو ب : النجوم ن — (٥-٦) إذ كنت من تميم كنت مزبكر ب — (٦) سبباً ن — سلما ن — (٨) أقرع ب — (١٠) ويبلغ تدبيرك م — عن تدبيري م ، عن نفسي ن — (١١) [وأنت ملك وأنا سوقة] ب — (١٢) متقدم م — (١٤) لكان م — كان ب — (١٥) وأمضيت ن — أقاسيطها ب — (١٦) حكمت م : تكلمت ن ، جملت ب

(*-*) (٢ - ص ٨٩ ، ٢) ولكن اشتد ... لا أحد : رواية ب ١٨

(†-†) (٧ - ص ٨٩ ، ١) أنت أبقاك ... بدعت : رواية م ٦

وإن جاريتُ أبدعتُ[١] ورأيى كلُّه دَبَرِىٌّ . وأنت تُعَدُّ فى الشطرنج زبرب وأنا فى الشطرنج لا أحد[*]

وما أعرف ههنا اجتماعًا على مشاكلة ، إلاّ فى الإيثار بخُبز الخُشكار على الحُوّارى والباقلّى على الجوزينج ، وأنّا جميعًا ندّعى الهندسة . فقد بلغ الآن من جُرمى فى مُساواتك فى خُبز الخشكار وإيثارى الباقلّى والمعرفة بتقدير المُدُن وإجراء القُنِىّ ، أن أُنفَى من جميع الأرض وأن تُجعَل فى دمى الجعائل . فإنّى قد هجرتُ الخبز البتة إلى مواصلة التمر ونزلتُ الوبَرَ بَدَلاً من المَدَر

دَعْنا الآن فإنّك فارغ . إنّ الله يعلم وكفى به عليماً وكفى به شهيداً وكفى به حفيظاً ووكيلاً وكفى بجُرأةِ مَن يعلّمه ما لا يعلم جرأةً وتعرّضًا وكفى بحالِه عند الله بُعداً ومَقتاً . لقد أردتُ أن أفديك بنفسى فى بعض كتبى ، وكنت عند نفسى فى عداد الموتَى وفى حيّز الهَلكى ، فرأيتُ أنّ مِن الخيانة لك ومن اللؤم فى معاملتك ، أن أفديك بنفسى مَيتةً وأن أُريك أنّى قد جُدتُ لك بأنفَس عِلقٍ والعِلقُ معدومٌ . ليس أنّ مَن قد فداك فقد جُعل فداك ، ولكنها نهايةٌ من نهايات التعظيم ودليل من دلائل الاجتهاد ، ومَن أعلن الاجتهاد لك واستسرّ خلاف ذلك ، فقد نافق وخان وغشّ وألام ، وأخلِقْ بمن أخلَّ بهذه ألاّ يَرعى حقًّا ولا يَرجع إلى صحةٍ ولا إلى حقيقةٍ

ثم أنت لا يشفيك منّى السمُّ المُجهز ولا السمّ السارى فإنّه أبعدُ غايةً

(١) وإن جازيت بدعت م : وإن حاربت هربت ب ، سقط من ك — [تعد] ب —
(٢) زبزب ك ، زبرب ب — لا جد ب — (٤) عن ك — (٧) ونزلت ، صححنا : وتركت ك — (١٢) بنفسى ك

فى التطويل وأبلغُ فى التعذيب ، لا ولا لُعاب الأفاعى وداهيةُ الدواهى ، فإنه يُعجزُ الرُّقَى ويفوتُ ذَرعَ الأطبّاء ، لا ولا نارُ الدنيا ، بل لا يشفيك من نار الآخرة إلّا الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم إلّا أن أرمَى فى سَوائه وفى أصْطُمَّةِ ناره وفى مُعظم حريقه وفى موضع الصميم من لهيبه ، بل لا تكتفى بذلك دون الدَرك الأسفل ، بل لا يُرضيك شىء سوى الهاوية ، بل لا تَرضى إلّا بعذابِ آل فرعونَ أشدَّ العذاب ، بل لا يُرضيك إلّا عذابُ إبليس الذى زيَّن الخَتْر للعباد وبثّه فى البلاد ، والذى خطّأ الربَّ وعانده وردّ قوله وغيّر عليه تدبيره ، ولم يَزدَدْ إلّا شكًّا ولجاجةً وتماديا وإصراراً ، ثم لم يرض من الجِدّ فى مخالفة أمره وخَلعِ العِذار فى شدّة الخلاف عليه ، إلّا بأن يحلف على شدّة اجتهاده فى ذلك بعزّته ، فجعل العِزّة المانعة من إسخاطه سبيلاً إلى إسخاطه ، والقَسَمَ الحاجز دون إغضابه وسيلةً إلى إغضابه ، حيث قالَ : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فعليك — عافاكَ الله — بإبليسَ إن كنتَ لله تغضب ، أو عليك بالأكفاء إن كنت لنفسك تتشفّى . لا ولكنك استغمرتَنى واستضعفتَنى ، وجعلتنى فَرّوج الرقا ، (*)وتريد أن تتعلّم فىّ معاقبة الأعداء(*) . فإن كنتَ إلى هذا تذهب فجعفر بن معروفٍ أضعف منّى وعبد الله بن عيسى أسوأ خُبراً منّى سبحان الله يسلمُ عليك حَيْدرُ الأفشين ويهلكُ عليك عمرو الجاحظ ،

(٨) يرده ه — وتباينا ه — (١٢) وعزتك ه — (١٥) كذا فى د ولعله الرفاء — (١٧) الافشينى ه

---

(١٢) سورة ص : ٨٢

(*-*) (١٥) رواية ب ١٩ : أنت جعلنى الله فداك تريد أن تتعلم فى عقوبة الأعداء

ويسوذ بك أبعدُ البُعَداء ويشق بك أقرب القُرَباء ، وتتغافلُ عن ْمِثـلِ الجبال التماساً للتسلُّم وحُبًّا للسلامة ، ْوتتغلغل إلى المحقَّرات طلباً للتعرُّض وحُبًّا للشرّ . ومتى قدرتَ على عدوّك فلم تجمل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى لم تتغافل عنه تـكرُّماً أو تدعه إحقاراً ، ومتى اكترثتَ لـكبير أو ضاق صدرك عن شيء عظيم ، فهأنا ذا بين يديك فـكُلْنى بخلٍّ وخَردَلٍ ، فوالله إنك لتأكله غثًّا غيرَ مَرِىّ وَخبيثاً غيرَ شهىّ

لا (*)والله لكأنك وقعتَ على مطمورة وظَفِرتَ برأس خاقان(*) . كنتُ أظنّ أنّ الرّشاقة والحِلم لا يجتمعان وأنّ ْظَرفَ الإنسان ْوإصابة الرأى لا ْيقترنان ، وأنّ النَزَق والخِفّة مقرونان بخِفّة البدن وأنّ الركانة والأناة مجموعان لصاحب السِمَن . حتى رأيتُك فاُعتقدتُ بك خلافَ ذلك الرأى واستبدلتُ فيك ضدّ ذلك الظنّ ، فتركتَنى حتى إذا نازعتُ الرجال وتعرّضتُ للشَجَى وشغلتُ نفسى بثَلب ْالخصام وانقطعتُ إلى أصحاب القدود وجعلتُ عداوتى فى تقديم القِصاف ، وطال لسانى بك وأظهرت الاستبصار فى فضلك ، (†)ْوجعلتُ مزاج أخلاطك هو الحُجّة ْواعتدالك هو النهاية وطبيعتَك هى المسكنة ، وزعمتُ أنّ منظرك يُغنى عن مَخبرك وأنّ أوّلك ْيُجلى عن آخرك ، ْشددتَ علىّ شَدّة المُهر الأرن وتسرّعتَ إلىّ

(١) مثلك الحبال ت — (٢) وتغلغل ت — (٨) طرف ت — وإطالة الراى ت — (٩) لا يعترفان ت — (١٢) لعل الصواب : القصار ؟ (١٤) جعلت <فداك> مزاج أخلاطك ب — واعتدال<طبائعك> هو ب — (١٦) يحكى ب — <و> شددت ب

(*-*) (١٠) رواية ب ٢٠

(†-†) (١٤ - ص ٩٢ ، ١) جعلت ... الخنق : رواية ب ٢١

تسرّعَ الغِرِّ النَّزِق وأُلحِحتَ [٢] <على> إلحاحَ الحَنِق(١) . كأنك لم تحفل بما يشيع لك مِن اسم المتسرّع وبما تُضافُ إليه مِن سُخفِ [٢] المتبرّع ، بعد أن تُكذّب قولي وتُفسد خبري . (*) وقد تقدّمت التجربة في أنّ الحديد [٣] لا يكون حَقوداً [٤] وأنّ المصطنِع لا يكون للصنيعة حاسداً [٤] ، فقصدتَ على رأسي إلى [٥] القياس الممتحن فأفسدتَه وإلى الطبائع المعتدلة فنقضتَها وإلى القضايا الصحيحة فرددتَها(*)

وقد قالوا بأجمعهم : حالانِ لا يقبلان الحَسَد ولا يخلُوان من الرَّشَد ، حالُ الصنيعة لمُصطنِعِه وحالُ المولى لمُعتِقِه . فكيف إذا كان الصنيعةُ صديقاً وكان للخاصّة محتملاً . وإنما صارت — أبقاكَ الله — أجزاء النفس وأعضاء الجسد — مع كثرة عددها واختلاف أخلاطها وتباعدُ أماكنها — نفساً واحدة وجَسَداً واحداً ، لاستواء الخواطر ولإيقافها على الإرادة . فأنتَ وصديقُك الموافق وخليلُك ذو الشكل المطابق ، مستويان في المحابّ متّفقان في الهوى متشاكلان في الشهوة ، وتعاوُنكما كتعاوُن جوارح أحدِكما وتسالُمكما كتسالُم المتّفق من طبائعكما ، فإذا بان منك صديقُك فقد بان منك شَطرُك ، وإذا اعتلّ خليلُك فقد اعتلّ نِصفُك . بل النفوس المضمَّنة كالمعاني المضمَّنة ، فذهاب بعضها هو ذَهابُ جميعها ، فموتي هو موتُ صديقي وحياتي هي حياةُ صديقي ، فلا تُبعِدنّه من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ، فقد يقرب البغيض وينأى الحبيب . ولعل بعض طبائعك المخالط لروحك أن يكون أعدى من كل

---

(١) <على> ب — (٢) لعله : المتفرغ ؟ — (٣) وقد تقدمت <إلى> التجربة لأن الحديد ب — (٤) [وإن المصطنع ... حسوداً] ب — (٥) [القياس] ب

(*-*) (٣-٦) وقد تقدمت ... فرددتها : رواية ب ٢٢

عدوّ وأقطع من كل سيفٍ وأخوف عليك من الأسد الضارى ومن السمّ السارى

ثم أعلم أنّ الموثق بمودّته قليل . وقد صار اليوم المعتمَدُ عليه فى صحة العُقدة وفى كرم الغيب والعشرة عنقاءَ مُغرب . ولا أعلم الكبريت الأحمر إلّا أوجد منه ، وإنّى لأظنّ القناعة أكثر منه ، وما أكثر مَن جعل انقطاعَ سببه وضعفَ طمعه لانقطاع سببه قناعةً . وقيل ليحيى بن خالد : أىّ شىء أقلّ ؟ قال : قناعة ذى الهمّة البعيدة بالعيش الدون ، وصديقٌ قليل الآفات كثير الإمتاع شكور النفس يصيب مواضع المَرَح . لا والله لن تعرف على ظهرها موضعاً للسرّ ولا مكاناً للشكوى ولا رُوحاً تأنس بها ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردت أن تعرّفنى من جميع العالمين رجلاً لما قدرتَ على أحدٍ يحتمل الغِنَى ، ومحتمل الفقر قليل ومحتمل الغِنَى عديم

إنّ الخير — أبقاك الله — فى أيّام كثرته كان قليلاً فما ظنّك به فى أيّام قلّته ، وإنّ الشرّ فى أيّام قلّته كان كثيراً فما ظنّك به فى أيّام كثرته . وأنت غريب فى المصطنعين وأنا غريب فى الصنائع ، والغريب للغريب نسيبٌ ، ونَسَبُ المشاكلة وقرابة الطبيعة الموافقة أقرب من نسب الرَّحِم ، لأنّ الأرحام مولعة بالتحاسُد لَهِجة بالتقاطُع ، وإن التحابّ على طَبع المشاكلة والتلاقى على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعدُ من التفاسُد وأبعدُ من التعادى ، وسَبَبُ التعادى عَرَضٌ فى طبائع الغُرَباء وجوهرٌ فى طبائع الأقرباء

وأعلم أنك لا تزال فى وحشةٍ إلى وحشةٍ وفى غربةٍ إلى غربة ، وفى تنكّر العيش وتسخّط الحال ، حتى تجد مَن تشكو إليه بَثّك وتُفضى إليه

(٣) لعل الصواب : المتوثق — (٨) أن تعرف D

بذات نفسك . ومتى رأيتَ عجباً لم تُضحكك رُؤيتك له بقدر ما يُضحك إخبارك إيّاه . فمَن أغلب عليك ممن كانت هذه حاله منك ومَوقعه من نفسك . ولو أنّ شيبتى التى بها استعطفتُك وكبرة سنّى التى بها استرحمتُك ، اللتان لم يحدثا علىّ إلّا وأنا فى ذَرَاك ولم يحلّا بى إلّا وأنا فى ظِلّك ، لكان فى شفاعة الكبرة واسترحام الضعف والوَهنة ما يردعك عنّى أشدّ الرّدع ويؤثر فى طباعك أبين الأثر ، فكيف وقد أكرمتَنى جديداً ثم تريد أن تُهينَنى خَلَقاً ، وقوّيتَ عَظمى أغلظَ ما كان ثم تريد أن تُوهنه أرقّ ما كان . وهل هرِمتُ إلّا فى طاعتك وهل أخلقنى إلّا مُعاناة خِدمتك

قال علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه : رأىُ الشيخ الضعيف أحبّ إلينا من جَلَد الشابّ القوىّ . وأنا أقول كما قال أخُو ثقيفٍ : مودّة الأخ التالد وإن أخلق خيرٌ من مودّة الطارف وإن ظهرت بشاشته وراعتك جِدّته . وقال عبد الملك بن مروان : رأىُ الشيخ أحبُّ إلينا من مشهد الغلام . وقال بعضهم : ليس بغائبٍ مَن شهد رأيه وليس بفانٍ مَن بقى أثره ، وما كمّل العقلَ ولا وفّر التجربة شىء كنقصان البدن وكأخذ الأيّام مِن قُوَى الأعضاء . وقال آخر : ما قبّح الرجالَ شىء كالوِكال ، ولا أفسد الكريمَ شىء كحُبّ الاستطراف . وخير الناس مَن أتبع الغضب مواقع الذنوب ، وأتبع العِقاب مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى

(*) ولقد منحتُك جَلَد شبابى كَمَلاً وغرب نشاطى مقتبلاً ، وكان لك مهناه وثمرة قواه ، واحتملتُ دونك غُرامه وعدمه وكان لك غُنمه

(١٣) الا ⊙ — (١٨) فكان م — (١٩) قوله ⊙ — وعزيه م

(*-*) (١٨ - ص ٩٥ ، ٧) ولقد ... المغنى : رواية م ٧

وعلى غُرمه ، وأعطيتُك عند إدبار بدنى قوةَ رأيى وعند تكامُل معرفتى نتيجة تجربتى ، واحتملتُ دونك وَهنَ الكِبَر وأسقام الهَرَم . وخير شركائك مَن أعطاك مَا صَفا وأخذ لنفسه ما كَدُر ، وأفضل خُلطائك مَن كفاك مؤونتَه وأحضرك معونتَه ، وكان كلاله عليه ونشاطه لك . وأكرم دُخَلائك وأشكر مُؤمِّليك مَن لا يظنّ أنك تُسمِّى جزيلَ ما تحتمل فى بَذلِك ومؤاساتك مؤونةً ولا تَتَابُعَ إحسانك إليه نعمةً ، بل يَرى أنّ نعمة الشاكر فوق نعمة الواهب ونعمة الوادّ المخلص فوق نعمة الجواد المغنى(*) ، وأنه لا يبلغ فى إعطاء المجهود من نفسه فى خلع جميع ماله إلى مؤمّليه والمتحرمين به ، حُسنَ نِيّة الشاكر الوامق وحقَّ تَمنِّى الوادّ العارف . ولو اقتضيتَ جميع حقوقك علىّ وأنكرتَ جميع حقوقى عليك ، أو جعلت حقّى عليك حقًّا لك ، ثم زعمتَ أنّ حقك لا يؤدَّى إلى شكره وأنّ حقّى لا يلزم حكمه وأنّ إحسانى إساءة وأنّ الصغير من ذنوبى كبير وأنّ اللّمَمَ منّى إصرارٌ وأنّ خطأى عمْدٌ وأنّ عمدى كلّه كفرٌ وأنّ كفرى يوجب الطمع ويمنع من النزوع ، لما كان عندك ، وما اتّسع قولى لأكثر من هذا العقاب ولا أشدّ من هذا الغضب . وما ينبغى أن يكون هذا المقدار من النقم إلاّ لبارئ النَّسَم ، فى دار البقاء لا فى دار الفناء ، والذى يجوز بين العباد إنما هو تعزيرٌ أو حدٌّ أو قَوَدٌ أو قِصاص أو حبس أو تغريب أو إغراق أو إسقاطُ عدالة أو إلزامُ اسم العداوة أو عِقابٌ يجمع الألم والتقويم والتنكيل ، فيكون مضض الألم أجرًا له ومُعدِّلاً أسبابه . ورُبما قصر الإيقاع

---

(٥) مواليك م — (٦) ومواساتك م — (٧) [نعمة] م — (١٤) يظهر أنه سقط بعد « عندك » عدة كلمات — (١٦) الذى ⊙ — (١٨) لعله : إغرام

على السُخط وجاوز حدّ الغضب ، وربما كان مقصوراً على مقدارها ومحبوساً على نهاية حالها . وليس كل عقابٍ نتيجة سُخط ، وقد لا يُسمّى ذلك المُوقِع والمُعاقِب واجداً كما يسمّى ساخطاً ، ولا يسمى عاتباً كما يسمّى غضبان ، فيخرج كما ترى من أن يسمّى سُخطاً أو موجدةً وغضباً ، كما خرج عقاب آدم عليه السلام من هاتين الصفتين ومن جميع القسمين ، وعلى أنه كان إخراجاً من دار الخُلد والكرامة إلى دار الابتلاء والمحنة . مع ما فى ذلك من إعراء الجلد والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم والاغترار بيمين الخصم

والعجب أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل عفوك ، ولا تضجر بطول تشاغلك بظلم صديقك مع استغنائك عن ظلم صديقك . فلو كنتَ إنما تفعل ذلك لأنك تلذّ ضرب السياط ورَضّ العظام ، فجنبُ دَنَدَن أحمل والسوط فى ظهر قاسمٍ أحسن وأبدانهما تحت السياط أثبت وإنّ أرواحهما أبقى وهى بأرواح الكلاب أشبه وإلى طبائع الضِباب أقرب وأرحامهم بالحمير أمسّ ومن يشير فيهم بذلك أكثر والأجر فى ضربهم أعظم . فاستدِم اللذة بطريق اللذة وضع الأمور فى مواضعها يطُلْ سرورك بها

إنّ عِتاق الخيل وأحرار الطير أدقّ حِسًّا وأشدّ اكتراثاً . والكوادن الغلاظ والحمار الثقال أكلّ حِسًّا وأقلّ اكتراثاً . وليس الصبر بالصمت والسكوت ولا بقلّة الصِياح والضمور ، وقد يصيح تحت السوط مَن لا يُقِرّ على صاحبه ولا يدلّ على عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصياح والهرب والفرس العتيق يعدو ولا يصيح ، والحافر كله كظومٌ ضاغن والمخلب كله ضَجور صَيّاح ، والضجر فى الخُنث عامّ والبخاتى أضجر ، فسمن الظِلف عامّ

(١٩) ضاغن ، صححنا : ضامن ?

وهو فى الضأن أخفى . وكل مضروب هارب صيّاح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهرب من المكروه محمود والمُقام عليه مذموم ، كالذى يعترى *عين السقم ، وتجده فى الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث وشدّته . وصبر البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ولا يدل على الكرم . وفى المثل : ما رُوح فلانٍ إلاّ روح كلب . ويقول العرب : الضبّ أطول شىء ذماء ، والكلب لئيم والضبّ غير كريم . والبازى أكرم من الصقر وأشدّ . وأكثر ثمناً وأجمل جمالاً وأعتق صيداً وأنبل نُبلاً ، إن قبض عليه قتله وإن لم يُنح كَنْدَرته* عن قربه *أوهق نفسه . ثم يبلغ من دقة طمع البازى وعتقه أنه ينقطع بَرده للباز يار له إلى مسقطه من يده ، والصقر يتعلّق بساقيه من رجل حمل *بذرع فيضطرب منكساً إلى الصبح ثم يجده وكأنه لم يزل على كندرته وعلى مسقطه الذى يؤتى له

فليس بدنى مِن أبدان الاحتمال فأُمتِعك بطُول ثباته لك ، ولا أثبُت لك ثباتَ العير الكليل الحسّ ولا أجعل الصياح دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك أحد ما تتمتّع به وتُدرك به حاجة نفسك . وقد دللتك على ناسٍ يجمعون لك الخصال التى فيها دوام لذتك وتمام شهوتك . فإن زعمتَ أنّ الذى يُثبت روح دَنْدَن فى بدنه وروح القاسم فى جسمه ، سرورُهما بما قد احتجنّا مِن كنوز الخلافة وأموال الرعيّة ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما فى أبدانهما ومن شدّة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرّق بينهما و بين تلك الأموال التى

(٣) كذا ف ولعله : العير السقيم — (٩) اوهق ، صححنا : ارهق ف — (١٠) كذا ف

تمسك أرواحهما بالحيل اللطيفة والتدبير النافذ ، و بأن تُمضى فيهما حُكم الكتاب والسُنّة . فإنه سيحل عُقدة أرواحهما عقداً عقداً ، فيعظم أجرك
٣ ويطيب ذكرك وتطيع الخليفة وتتحبّب به الأُمّة ، فتكون قد أحسنت فى صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله . والسلام عليك ورحمة الله و بركاته[٥]

---

(٥) تمت الرسالة بعون الله ومنه وتوفيقه والله الموفق بالصواب برحمته . والحمد لله أولا وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه ۞

٤

رسالة فصل ما بين العداوة والحسد

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

أصْحَبَ اللهُ مُدَّتك السعادةَ والسلامةَ وقَرَنها بالعافية والسُّرور ووَصَلها بالنعمة التي لا تزول والكرامة التي لا تحُول

هذا كتابٌ — أطال اللهُ بقاءك — نبيلٌ بارعٌ ، فُصِلَ فيه بين الحسد والعداوة ، لم يسبقني إليه أحد ، ولا إلى كتابِ فصل الوعد الذي تقدّم هذا الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاقِ الوزراء الذي تقدّم كتابَ فصل الوعد . وإنّما نَبُلَت هذه الكتبُ وحَسُنَت وبَرَعت وبذّت غيرَها ، لمشاكلتها شَرَفَ الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة والآثار الحسنة اللطيفة والأحاديثِ الباعثة على الأخلاق المحمودة والمكارم الباقية المأثورة ، مع ما تضمّنته من سِيَرِ الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم وما جَرَت عليه

(١٤) ما تضمنته ، صححنا : ما تضمنها ⓓ

(*) الجاحظ رحمه الله ⓓ — أول الرسالة في ⓓ : الحمد لله رب العالمين كما هو أهله وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به وعلى آل محمد كما سنه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيرا

أحوالهم . فأنا أسألك بساطع كرمك وناصع فضلك ، لمّا امتننت عليّ بصرف عنايتك إلى قراءتها ، فإن لم يمكنك تبحّرها والتقصّي لجميعها ، للأشغال التي تعروك ، فبحسبك أن تقف على حدودها وتتعرّف معانيَ أبوابها ، بتصفّح أوائلها . فإنّ معك قلباً به من اليقظة والذكاء والتوقد والحفظ ما يكفي معه نظرُ الخاطف

إنّه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضَى من القُرون الذاهبة إلّا وفيه علماء مُحقّقون ، قد قرأوا كُتُب مَن تقدّمهم ودارسوا أهلها ومارسوا .. .. لهم وعابوا المخالفين عليهم ، فمخَضُوا الحكمة وعجَموا عيدانها ، ووقفوا على حدود العلوم ، فحفظوا الأمّهات والأصول وعرَفوا الشرائع والفروع ، فقرَنوا ما بين الأشباه والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ، ووصَلوا بين المتجاور والمتوازي ، واستنبطوا الغامضَ الباطن بالظاهر البيّن ، واستظهروا على الخفيّ المشكل بالمكشوف المعروف ، وعرفوا بالفهم الثاقب والعلم الناصع ، وقضَت لهم المحنةُ بالذكاء والفِطنة . فوضعوا الكتبَ في ضُروب العلوم وفُنون الآداب ، لأهل زمانهم والأخلاف مِن بَعدهم ، يزدلِفون بذلك إلى الممتنّ عليهم بفضلِ المعرفة التي ركّبها الله فيهم وأبانهم من غيرهم وفضّلهم عليهم ، ويُباهُون به الأممَ المخالفةَ لهم ، ويتبارَون فيما بينهم

ولهم حُسّادٌ معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم والكتب منتحلةٌ يدّعون مثل دَعاويهم ، قد وَسَموا أنفسهم بسمات الباطلَ وتسمّوا

(١) أسألك ض — (٣) فبحسبك ، صححنا : وبنفسك ض — (٧) بياض كلمتين في ض — (١١) المتجاوز والمتوازي ض — (١٥) لعل الأشبه : فأبانهم — (١٨) لعله : بسمات < العلماء > بالباطل ؟ — وسموا ض

بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ولبسوا لباسَ الزور متزخرفين متشبّهين بما لا محصولَ له ، يحتذون أمثلة المحقّين فى زيّهم وهَديهم ويقتفون آثارهم فى ألفاظهم وألحاظهم وحَرَكاتهم وإشاراتهم ، ليُنسَبوا إليهم ويحلّوا محلَّهم . فاستمالوا بهذه الحيلة قلوبَ ضُعَفاء العامّة وجُهلاء الملوك ، *واتّخذهم المُعادون للعُلَماء المحقّين عُدّةً يستظهرون بهم عند العامّة . وحَمَلَ المدّعيةَ للعلم المزوَّر الحسدُ على بَهتِ العلماء المحقّين وعَضهِهم والطعن عليهم ، وجرّأهم على ذلك *ما رأوا مِن صَغوِ ضَعَمة القلوب وأذِلَّة الناس إليهم ومَيْل جُهلاء الملوك معهم عليهم . وأمّلوا أن ينالوا بذلك بَشاشةَ العامّة ، وتستويَ لهم الرياسة على طَغَام الناس ورَعَاعِهم ، ويَستخولوا *رَعاعهم وقومهم . فهمزوا وهددوا ، *وتوردوا على أهل العلم بغَباوتهم وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم وهتكوا ستراً كان مُسدَلًا عليهم بالصمت — فقد قيل الصمتُ زَينُ العالم وسِتر الجاهل — طمعاً فى الرياسة وحبًّا لها . وقد قيل :

حُبُّ الرياسة داءٌ لا دواءَ له وقَلّ ما يجد الراضين بالقسَمِ

ولم يخلُ زمنٌ من الأزمنة من هـذه الطبقة ، ولا يخلو . وهلاكُ مَن هلكَ من الأمم فيما سَلَف بحبِّ الرياسة ، وكذلك مَنْ يهلِك ، إلى انقضاء الدهر ، فبحبِّ الرياسة :

هَلاكُ الناس مُذ كانوا إلى أن تأتى الساعة
بحُبِّ الأمر والنَّهى وحُبِّ السمع والطاعة

فأشـكلَ على العامّة أمرُ العالم الحقيقىّ والمدّعى *المجادل والمنتحلِ

---

(٤) واتخذهم ن — (٧) ما ، صححنا : من ن — (٩) كذا فى ن ولعلها : رعاياهم أو ما يشبهها ؟ — وتوددوا ن — (١٩) صححنا : المحادى ن

للزُور والباطل . ثم تَرادَفَ عليهم مِن هـذه العِلَل التى يَعمى لها السبيلُ الواضِح والطريقُ *المنشأ على الجاهِل المستَضعف وذِى الغنا المسترهف

ولستُ آمَنُ — جعلنى اللهُ فِداك — أن تـكونَ هذه الـكتب التى أُعنَى بتأليفها وأتأنّق فى ترصيفها ، يتولى عَرضها عليك مَن قد لبِس لِباس الزور فى أنتحال وضع مِثلها ، ونَسَب نفسه إلى القوّة على نظائرها والمعرفة بما يُقاربها إن لم يكن أخاها فابنَ عمّها ، ويشبَعُ بما لم يُطعمه اللهُ منها . ولعلّ بعضَ *من حوله أو بعض مَن يهزِل به ويرتع فى عقله ويلهو بلُبِّه ويضمُّه على *طَبطابَةِ اللعب وفى أرجوحة العبث *يوهمه الحسدُ له على ما يدّعى من ذلك ، ويتقدّم إلى آخرين فى إيهامهم إيّاه ذلك ، فيزيدُه فِعلهم ضراوة بادّعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ ، فإذا رجَع إلى الحقائق علِم أن مثله كما قد قيل :

ومَن يسكنِ البحرَين يعظُمْ طِحالُه ويُغبَطْ بما فى البطنِ والبطنُ جائعُ

وقد قيل *الذِئب يغبط وهو جائع ، فيلتوى فى قراءتها ويقبِضُ لسانَه عن بسط ما يحتاج أن ينشره منها ويقصّر فى تفخيم حروفها ولا يملأ فمه منها

بل لا آمَنُ أن يتجاوزَ ذلك إلى الطعن عليها بقولٍ أو إشارة ، فيُوهِم فسادَ معانيها ويُومِىء إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يظهرَ *المعاداةَ لها والحسدَ لمؤلِّفها والحملَ عليها بقولٍ يكونُ دليلا على ما يُضمر ، وهو أبلغُ ما يكونُ من قلبِ المستمع *وأنجعه فيه ، فيقعُ ذلك بخَلَده . وقد قيل : من يسمع يَخَلْ . وليس يقابله أحدٌ *برد ولا يوازيه بنزاع ، فيزدادُ نشاطا عنـد ما يَرَى من خلاء الأمر . وقد قيل : كلُّ مُجرٍ فى الخلاء يسبق وكل مناظرٍ

---

(٢) المشا ط — (٦) من ، صححنا : ما ط — (٨) طبطاب ط — فيوهمه ط —
(١٢) الذنب ط — (١٥) المعادلة ط — (١٧) وانجعه ط — (١٨) بود ط

متفردٍ بالنظر مسرور . وإنما يعرف جَرْىُ الخيل عند المسابقة وبراعةُ النظر عند المخاصمة

وقال لى بشرٌ المريسىّ : عُرض كتابى على المأمون فى تحليل النبيذ ، وبحضرته محمدُ بنُ أبى العباس الطوسىّ . فانبرى محمدٌ للطعن عليه والمعارضة للحُجَج التى فيه ، وأسهَب فى ذلك وخَطَب وأكثر وأطنب ، فغَلِقَ المأمونُ واحتدم وهاج واضطرم ، لاستحقار الطوسىّ وخلاء المجلس له . وكان يحبّ أن يَزَعَه وازع يكفّهُ بحجةٍ تسكتُه ، فلمّا لم ير أحداً بحضرته يذبّ عن كتابى قال متمثّلا :

يا لكِ من قنبرة بمَعْمَر خلا لكِ الجو فبيضى وأصفرى
ونقّرى ما شئتِ أن تنقّرى

فما كان إلّا رَيْثَ فراغهِ من التمثّل بهذه الأبيات ، حتى أُستُؤذِنَ لى ، فدخلتُ عليه . فقال : يا أبا عبد الرحمن ما تقولُ فى النبيذ ؟ فقلت : حِلٌّ طَلْق يا أمير المؤمنين ، فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ، قلت : لعَن الله قليله إذا لم يُسكر كثيرُه . ثم قال : إنّ محمداً يخالفك . فأقبلتُ على ابن أبى العبّاس ، فقلت له : ما تقول فيما قال أميرُ المؤمنين ؟ قال : لا خلافَ بينى وبينك ، كلاما يُوهم به أهلَ المجلس ، حُبًّا للتّسلم مِنّى والتخلصِ من مناظرتى ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمتُ ذلك منه ، وقلتُ له : فمالى لا أرى أثرَ قواه فى عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلما رأيتُ ضحكه أطنبتُ فى معانى تحليل النبيذ ، وابنُ أبى العباس ساكتٌ لا ينطق ، وكان قبل دخولى ناطقا لا يسكت . فلمّا رأى

---

(٥) فغلق ، صححنا : فقلق ﻫ — (٦) كذا ﻫ — (٩) جلا ﻫ — (١٧) أشر ﻫ

المأمون سكوتَه عنــد حضورى ، مع كثرة كلامه فى ثَلب كتابى وعيبه — كان — قبلَ دخولى ، قال متمثِّلا :

مالَكَ لا تنبحُ يا كلبَ الدَومْ   قد كنتَ نباحاً فما لك اليومْ

ثم نظر إلىّ فقال : إنّ الـكتب عقول قوم وراءها عندهم حُجَجٌ لها ، فما ينبغى أن يُقضى على كتاب إلّا إذا كان له ⁽⁵⁾مدافع عنه وخَصم يبيِّن عمّا فيه فإن أبناء النِعَم وأولاد ⁽⁶⁾الأسد محسودون . ثم قال : يا أبا عبــد الرحمن بإزاء كل حاسد ⁽⁷⁾راهن ، وقد قيل فى مَثَلٍ من الأمثال : ⁽⁸⁾الحسن محسود ، وفى مثل آخر : لن تَعدَمَ الحسناء ذامًّا ، وقال الأحنفُ بنُ قيس :

ولن تُصادفَ مرعًى مُمرِعاً أبداً   إلا وجدتَ به آثارَ مأكولِ

⁽¹⁰⁾يقال يعـاب فى كلّ حسن ويؤكل منه فيعيبُه ذلك . وقال عمرُ بنُ الخطّاب رضى الله عنه : ما أحدَثَ اللهُ لعبدٍ نعمةً إلّا وجدتَ له عليها حاسداً ، ولو أنّ امرءاً كان أقومَ من القِدح لوجدتَ له غامِزاً . وقال عمرُ بن عبد العزيز رضى الله عنه : الحاسدُ لا يملكُ عِنان حَسَده ، لأنه مغلوبٌ على نفسه . وقال الخطابُ بن نُمَير الســعدىّ : الحاسدُ مجنون يحسُد الحسَن والقبيح . وقال المهلّبُ بنُ أبى صُفرة : الحسدُ شِهابٌ ، لا يُبالى مَن أصاب وعلى مَن وَقع والعداوةُ لها عقلٌ تسوسُ به نفسها ، فينجُمُ قَرنها وتُبدِى صَفحتها ، فى أوقات الهتر ، وإلا فإنها كامنةٌ تنتظر أزمِنة الفرص ، والحسدُ مسلوبُ المعقول بإزاء الضمير فى كلّ حينٍ وزمانٍ ووقت . ومن لؤمِ الحسد أنّه موكَّل بالأدنى فالأدنى والأخصِّ فالأخصّ ، والعداوةُ وإن كانت تقبِّح الحسَن فهى

(٥) دافع ᴰ — (٦) كذا فى ᴰ — (٧) كذا ᴰ ولعل فى العبارة سقطا تأويله : بازاء كل <حسن> حاسد راهن — الحسن ، صححنا : الحسد ᴰ — (١٠) كذا ، وفى الجملة تحريف ، ولعل يعاب صحتها : العاب

دون الحسَد ، لأنّ العدوّ *المبايِنَ قد يحول وليًّا منافقا ، كما يحول الوليُّ المنافق عدواً *مبايناً ، والحاسدُ لا يزولُ عن طريقته إلّا بزوال المحسود عليه عندَه . والعداوةُ تَحدُثُ *لعلّةٍ ، فإذا زالت العلّةُ زالت معها ، والحسد تركيب لعله *يحسد عليه ، فهو لا يزول إلّا بزواله

ومن هذا قال مُعاويةُ رحمه الله : يمكنني أن أرضيَ الناسَ كلهم إلّا حاسدَ نِعمةٍ ، فإنّه لا يُرضيه منها إلّا زوالُها . وأعداء النعمة إذا شُورِكوا فيها ونالوا منها ، تزَحزحوا عن عداوتها وكانوا من أهلها الحامين عنها والدافِعين عن حماها

ومن هذا قال المغيرة بن شُعبة : النعمةُ التى يُعاش فيها نِعمة محروسة ، ليس عليها ثائرٌ يغتالها ولا ذو حَسَد يحتال فى غيرها

وقال قُتيبة بن مُسلم : خيرُ الخيرِ وأحصَنُه خير عيش فيه . وكلُّ خير *كان يوضح بدلاً ؛ كان من المتالف ممنوعا ومن الغِيَرِ آمناً

وحُسّاد النعمة إن أعطوا منها *وتبحبحوا فيها ، ازدادوا عليها غيظاً وبها إغراء . والعداوةُ تخلُق وتَمَلّ والحسد غضٌ جديد *حرام إذا عطى لا يبيد . فكلّ حاسدٍ عدوٌّ وليس كل عدوّ بحاسد . وإنما حملَ اليهودَ على الكفر بمحمّد صلّى الله عليه وسلم — وهم يعرفونه كما يعرِفون أبناءهم ، أنه نبيّ صادق ورسول محقٌّ يقرّون بعثه فى توراتهم ويتدارَسونه فى بيتِ *مدراسهم — الحسدُ ، وحَجَزَ بينَ علمائهم والإيمان به ، ثم نتج لهم الحسدُ عداوته

(١-٢) كذا ، ولعلها المبارز ، مبارزا — (٣) لعلة ، صححنا : العلة ه — كذا ، ولعله ، لعلة ما يحسد عليه — (١٢) كذا ، ولعله : يرضخ بذلا — (١٣) وتبحبحو ه — (١٤) كذا ، ولعلها : حرم أو أعطى — (١٨) مدارستهم ه

ومن الدليل على أنّ الحسد آلمُ وآذى وأوجعُ وأوضعُ من العداوة ، أنه مُغرىً بفعل الله عزّ وجلّ ، والعـداوةُ عارية من ذلك لا تتصلُ إذا اتصلت إلّا بأفعال العباد ، ولا يُعادى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع بأحدٍ عادَى أحداً لأنّه حسنُ الصورة جميلُ المحاسن فصيحُ اللسان حسنُ البيان ، وقد رأيتَ حاسدَ هـذه الطبقة وسمعتَ به ، وهم كثيرٌ نعرفهم بالخبَر والمشاهدة . فهذا دليلٌ على أنّ الحسَد لا يكونُ إلا عن فساد الطبع واعوِجاج التركيب واضطراب السُوس

والحسد أخو الـكذب يجريان فى مضمارٍ واحد ، فهما أليفان لا يفترقان وضجيعانِ لا يتباينان . والعـداوةُ قد تخلو من الـكذِب ، ألا ترى أنّ أولياء الله قد عادَوا أعداءَ الله ، إذ لم يستحلّوا أن يكذبوا عليهم . والحسَدُ لا يبرأ من البهت ، وكيف يبرأ منه وهو عَموده الذى عليه يعتمد وأساسه الذى به البناء يعقَد . وأنشد :

كضرائر الحسناء قُلن لوجهها كَذِباً وزُوراً إنّه لدَميم

والحسَدُ نارٌ وَقودهُ الروح لا يبوخ أبداً ، ويفنى الوقود والحسدُ لا يبلى إلّا ببلى المحسود أو الحاسد . والعـداوة جمر يوقِدُه الغضب ويطفئه الرضا ، فهو مؤمَّل الرُجوع مرجوٌّ الإنابه . والحسَدُ جوهرٌ والعداوة اكتساب . وقال بعضُهم الحسدُ أنثى لأنّه ذليل والعداوةُ ذكرٌ فحلٌ لأنها عزيزه والحسدُ وإنْ كان موكلا بالأدنى فالأدنى ، فإنّه لم يعر منه الأبعد فالأبعد

فقد رأينا وشاهدنا مَن كان يسكنُ العراق وينتحلُ العلمَ والأدب ، انتهى

---

(١٦) الابانة ن — (١٨) لم يعز منه إلا بعد ما لا بعد ن

إليه خبر مشاركٍ له فى الصناعة ، من أهل خراسان ، وحمه بلخ ، من اتّساق الرياسة له فى بلده وجميل حالِه ونُبل محلّه عند أهل مصره وطاعة العامّة له ، وترادف النّاسِ عليـه ، فطار قلبُه فَرَقاً وأخذته الأُرَباء وتنفّس الصُّعداء وانتفض انتفاض المُلسّ المطور ، فقال لِى رجل من إخوانى كان عن يمينى حين رأى ما رأى منه : بحقٍّ قال مَن قال : لم يُرَ ظالمٌ أشبهُ بمظلومٍ من حاسدِ نعمة ، فإن نَفَسه متصلٌ وكربه دائم وفـكرته لا تنام

وهو فى أهل العلم أكثر وعليهم أغلب وبهم أشدُّ لصُوقا منه بغيرهم من الملوك والسوقة . وكأنَّ مَن ناله التقصيرُ فى صناعة العلم عن غايته القُصوى ، قد استشعرحَسَدَ كلّ ما يردُ عليه ، من طريف أدب أو أنيق كلام أو بديع معنًى ، بل قد وقَع بخَلَده لضعفه وقرّ فى رُوعه لخساسته ، أنّه لا ينالُ أحدٌ منهم رياسة فى صناعة ولا يتهيّأ له سياسةُ أهلها ، إلّا بالطعن على نواصيهم والعيب لجلّتهم والتحيُّف لحقوقهم

قال لى مسلمُ بنُ الوليد الأنصارى الشاعِر الذى يُعرف بصَريع الغوانى : خُيِّل إلى نَوْكَى الشعراء أنّهم لا يقضى لهم بجودة الشعر ، إلّا بهجائى والطعنِ فى شعرى ولسان يهجى به عرضى ، لا أنفكُّ متّهما من غير جُرم ، إلّا ما سَبَق إلى قلُوبهم من وَساوس الظُّنون والخواطر التى أوهمتهم أنّه لا يسجل لهم بجودة الشعر ، إلّا إذا استعملوا فىّ ما خُيِّل إليهم

وأخبرنى أشياخُنا من أهل خراسان أنَّ أبا الصلت الهروى كان عند الفضل ابن سهل ذى الرياستين بمَرو ، فقرأ عليه كتابا ألّفه النضرُ بن شميل ، فطعن أبو الصلت فيه . وكان الفضلُ عارفاً بالنَضر الشُميلى واثقاً بعلمه مائلاً إليه .

---

(١) كذا ، ولعله : وقصبة (٣) فترادف ? — (٨) غاية ? — (١٠) لخاسته ? — (١٥) فى الأصل : منهما

فأقبل على أبى الصلت وقال له : إنّ يحيى بنَ خالد قال يوما : إنّ كتبى لتُعرض على من يغلُظ فهمُه عن معرفتها ويجسو ذهنه عنها ولا يبلغُ أقصى علمه أمانيها — يعرّض باسماعيل بن صبيح — فيطعن فيها ولا يدرى ما يُقرأ عليه منها ، إلاّ أنّ نار الحسد تلهبه ، فيهذى هذيان المريض ويهمز همزان المعزى ثم لا يرضَى أن يقف عند أوّل الطعن ويُمسك عنه ، حتى يستقصىَ على نفسه إظهارَ جهله عند أهل المعرفة باستيعابه الطعنَ على ما لم يبلغْ درايتَه ولم يحط به علمُه ، ثم يُنسيه جهلُه الطعنَ الذى تقدّم فيها ، ويحمله نوكُه على استعمال معانيها وألفاظها ، فى كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شهدوه فى أوان طعنه عليها وحين ثَلبه لها

فقد عرفتُ حقيقةَ ما قال يحيى بنُ خالدٍ بالتجربة والابتلاء ، وإنى ربّما ألّفتُ الكتابَ المحكم المتقنَ ، فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخُطَب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة ، وأنسبُه إلى نفسى ، فيتواطأ على الطعنِ فيه جماعةٌ من أهل العلم ، بالحسدِ المركَّب فيهم ، وهم يعرفون براعَتَه ونصاعَتَه . وأكثرُ ما يكون هذا منهم إذا كان الكتابُ مؤلَّفا لملكٍ معه المقدرةُ على التقديم والتأخير والحطّ والرفع والترهيب ، فإنهم يهتاجُون عندَ ذلك اهتياجَ الإبل المغتلمة . فإن أمكنتهم حيلةٌ فى إسقاطِ ذلك الكتاب عند السيّد الذى أُلّف له ، فهو الذى قصدُوه وأرادوه . فإن كان السيّدُ المؤلّفُ فيه الكتابُ نحريراً نقاباً ونقريساً بليغاً وحاذقاً فَطِناً ، وأعجزَتهم الحيلة ، سَرَقوا معانىَ ذلك الكتاب ، وألّفوا من أعراضه وحَواشيه كتابا ، وأهدوه

(٣) يعرض ، صححنا : تعرض ⊙ — فيطعن ، صححنا : فطعن ⊙ — (٤) المعزى ، صححنا ، المعزى ⊙ — (١٥) لعلها ، كما يشير السياق < والترغيب > والترهيب

إلى مَلِكٍ آخر ، ومتّوا إليه به . وهم قد ذمّوه وثلبوه ، لمّا رأوه منسوبا إلىّ وموسوماً بى

وربّما ألّفتُ الكتابَ الذى هو دُونَه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمهُ باسم غيرى ، وأحيله على من تقدّمنى عصرُه ، مثل ابنِ المقفّع والخليلِ وسَلمٍ صاحبِ بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتّابى ومَن أشبه هؤلاء ، من مُؤلّفى الكتب . فيأتينى أولئك القومُ بأعيانهم الطاعنونَ على الكتاب الذى كان أحكمَ من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتابِ وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيّرونه إماماً *يقتدّون به ، ويتدارسونه بينهم ويتأدّبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ، ويرْوُونه عنّى لغيرهم من طلّاب ذلك الجنس . فيثبت لهم به رياسة ، يأتمّ بهم قوم فيه لأنّه لم يترجم باسمى ولم ينسب إلى تأليفى

ولربما خرج الكتابُ من تحتِ يدى مُحصَفاً كأنّه متنُ حجرٍ أملس ، بمعانٍ لطيفة محكمة وألفاظٍ شريفة فصيحة ، فأخافُ عليه طعن الحاسدين إن أنا نسبتُه إلى نفسى ، وأحسُد عليه مَن أهتمّ بنسبته إليه ، لجودة نظامه وحسن كلامه ، فأظهرُه مُبْهما غُفلاً ، فى أعراض أصولِ الكتب التى لا يعرف وُضّاعها فينهالون *عليه انهيال الرمل ويستبقون إلى قراءته استباق الخيلِ يوم الحَلْبة إلى غايتها

وحسد الجاهل أهونُ شوْكةً *وأذلُّ مجناً ، من حسد العارف الفطِن . لأنّ الحاسدَ الجاهل يبتدرُ إلى الطعن على الكتاب فى أوّل وهلةٍ يُقرأُ عليه ؛ من قبل استتمام قراءته ورقةً واحدة . ثمّ لا يرضى بأيسر الطعن وأخفّه حتى

(٨) يعتدون ⊙ — (١٦) عليها ⊙ — (١٨) كذا ⊙ ، ولعلها : وأقل

يبلغَ منه إلى أشَدّه وأغلظه ؛ من قبل أن يقفَ على فصوله وحروفِه . وليس يثلُبه مفسّراً مفصّلا ؛ ولـكنّه يُجملُ ذلك ويقول : هـذا خطأٌ من أوّله إلى آخره وباطلٌ من ابتدائه إلى انقضائه . ويحسب أنّه كلما ازداد إغراقاً وطعناً وإطناباً فى الحمل على وضع الـكتاب ؛ كانَ ذلك أقربَ إلى القبول منه . وهو لا يعلم أنّ المستمعَ إليه إذا ظَهرَ منه على هذه المنزلة استخفّ به وبكّته بالجهل ، وعلم أنه قد حكم من غير استبراء وقضى بغير رَوِيّة ؛ فسقط عنه فبطل . والحاسد العارف الذى فيه تقيّة ومعه مُسكة وبه طعم أو حياد ، إذا أراد أن يغتال الـكتاب ويحتال فى استعماله ، تصفّح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله وردّد فيه بصرَه وراجع فـكرَه وأظهر عند السيّد الذى هو بحضرته وجلسائه من التثبُّت والتأنّى ، حُبالةً يقتنص بهـا قلوبهم وسبباً يستدعى به ألبابهم وسُلّما يرتقى به إلى مُراده منهم وبساطاً يفرشُ عليه مَصارع الخُدَع ، فيُوهِمُ به القصدَ إلى الحقّ والاجتباء له . فربّما استدعى بهذه المخاتل والخُدع قلبَ السيِّد الحازم

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلّفى الـكتب ، إذا كان العارضُ لها على السيِّد الذى منه تُرجى أثمانها وعندَه تَنفُقُ بضائع أهلها ، على هـذه الصفة التى وصفتُها ، من الحسَد والحِذق بأسبابه والمعرفةِ بالوجوهِ التى تثلم المحسود وتهدّه وتضعُ منه ومن كتبه ، لا سيما إن كان مَعَ استبطان الحسَد وأستعمالِ الدهاء والذكاء ، جليساً لازماً وتابعاً لا يفارق ومُحدِّثاً لا يَريم ، وليست له رِعَةٌ تحجزه عن الباطل ولا مَعه حذرٌ يبعثُه على الفِكر فى العواقب . فإنّ هذا ربّما وافق فَترة السيِّد ، بطول تَرداد الكلام وكثرةِ تـكراره عليه ،

---

(٣) ويحسب ، صححنا : ويحسبه ح — اغراقا ، صححنا : غرقا ح — (٧) كذا ، ولعل حياد صوابها حياء

من تأكيد خطابه ونصرته قوله وذِبَادِه عنه واحتجاجه له فيؤثر فى قلبه ويضجّع رأيه . فليس للسيّد الذى يحبّ أن تصيرَ إليه الأمور على حقائقها وتصوّر له الأشياء على هيآتها ، حيلةٌ فى ذلك إلّا حسم مادّة هذا من أهل الحسَد ، بالإعراض عنهم والاحتجاز دونَهم

وربّما بلغ من الحاسد جَهدُ الحسد ، إذا لم يُعمَل بشهوته ولم تَنفذ سِهام لطائفه ، أن يُقِرَّ على نفسه بالخطأ ويعترف أن الطعن الذى كان منه فى فى الكتاب عن سهوٍ وغفلةٍ ، وأنّه لم يكن بلغ منه فى الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر مقسّم الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانفرد له همّه ، راجع وكان بدر منه عن وهمٍ وخطإٍ ، لتُظنّ به الرِعَة ، ويقالَ إنه لم يرجعْ عن قوله واعترف بالخطأ ، إلّا من عقلٍ وازع ودينٍ خالصٍ . وإنما ذلك حيلة منه ودهاء قدّمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطّد لها ، من قبول القول فى سائر ما يَرِد عليه من الكتب ، عن غير موافقة على مواضع . ويجعل ما قد تقدّم له من الرجوع عن قوله عند التبيّن له خلاف ما قال ، أوثقَ أسباب عدالته وأحكم عُرى نَصَفته

وكان يقال : من لطيف ما يُستدعى به الصدق إظهار الشكّ فى الخبر الذى يشك فيه . وكان يقال : من غامض الرياء أن تُرى بأنك لا ترائى . ومن أبلغ الطعن على ما تريد الطعن عليه ، أن تطعنَ ثم تستغفرَ الله ، ثم تَمهَّل فترةً ، ثم تعود لطعن هو أعظم منه وأطم من الأول ، ليوثق بك فيه ، ويقال : إنّ هذا لو كان عن حسدٍ ما رجع عن الطعن الأوّل . وقد قيل : ذو الغيبه المشهورُ بها المنسوبُ إليها ، يقل ضرره ويضعف كيده ، لما ساغ

(١) عمه ض — فيه ض — (٨) لعله : راجع <قوله> — (١٨) فترد ض — الطعن ض

له فى النـاس وانتشر منه . فكان عندهم ظنينا متهماً ومطبوعاً عليها ، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذذ به ؛ من غير قبول ولا اصطفاء له . وإنما البلية فى غيبة حذّاق المغتابين الذين يسمعون فيضحكون ولا يتكلمون . وأحذق منهم الذين يستمعون ويُسكتون القائل ، ويدعون إليه بالصلاح للمقول فيه . فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ، ودعوا للمقول فيـه ، وأوكدوا قول القائل ، لأنه لو حلّ عندهم محلّ البراءة ممـا قيل له ، لجُبه القائل ورُدع عن قوله

ومُظهر التوقّى قليلهُ عند العامّة كثير ، والمتورِّد المتقحم لا تكاد العامة تقبل منه . وقد قال بعض العلماء : إنّ عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين وحذّاقهم حيث يقول :

مسّا تراب الأرض منه خلقتما　　وفيها المعاد والمصير إلى الحشر
ولا تعجبا أن تؤتيا وتُعظما　　فما حُشى الإنسان شراً من الكبر
فلو شئت أدلى فيكما غير واحد　　علانيـــةً أو قال ذلك فى سرّ
فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما　　ضحكت له حتى يلج فيستشرى

ومن هذا سرق العتّابى المعنى حيث يقول :

إن كنتَ لا تحذرُ شتمى لما　　تعرف من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى سامعا ضاحكا　　فيك لمشنوع من القائل
مقالة الســـوء إلى أهلها　　أسرعُ من منحدَر السائل
ومَن دعا النـاس إلى ذمّه　　ذموه بالحق وبالبـــاطل

(٢) قول ت — (٤) لعلها مقحمة — (٩) عبد ت — (١٣) أدلى ، صححنا : أذى ت

وقال القاسم بن معن : كان أبو حنيفة رحمه الله يبلغ بالتبسّم من الثورى ما لا يبلغ الثورى بالتصريح منه

وسُئل القاسم بن معن عن ابن أبى ليلى ، فقلب كفه وقال :

من الناس مَن يَخفى أبوه وجدُّه   وجدُّ أبى ليلى لكالبدرِ ظاهرُ

فلم تثبت عليه به حجة فى ذم له ولا مدح ، وقد بلغ ما أراد

وسئل يوما عن علمه فقال : أوعوه وطباً ، فإن كان محضاً أو مشوباً أظهره الوطب وما خضوه

فإن قَدَحَ — جعلنى الله فداك — بالحسد قادحٌ ، فيما أؤلّفه من كتابى لك وسبق إلى وهمك شكٌ فيه ، أعلمتنى النكتة التى قدح فيها ، ثم قابله بجوابى ، فإنّى أرجو ألّا يُحتاج إلى حاكم عند تجانى القوابن بين يديك ، لعلوّ الحق على الباطل ودموغه إيّاه

والحسد أذلّ نفساً من أن يُجانى أحداً ، والعداوة إنما قُدّمت عليه لأنها عزيزة منيعة . ويقال : الحسد لا يبدو إلاّ فى العين وعلى اللسان المقصور عند المؤتلفين على . . . . ، والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها ، عند الموافقين له والمخالفين عليه

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبة فقال : ذاك امرؤٌ سيط بالحسد وجُبل عليه ، فليس له أخٌ فى السرّ ولا عدوّ فى العلانية

وسئل العتّابى عن أهل بغداد فقال : حُسّاد ، إخوان العلانية وأعداء السريرة ، يعطونك الكلّ ويمنعونك القُلّ

---

(١) بالتبسم ، صححنا : من التبسم ٥

(٧) وما حضوه ٥ — (١٤) بياض فى الأصل بقدر كلمة

ومما يدلّك على أنّ الحسد أخسّ وأغبن من العداوة أنّ الملل كلها ذمّته وعابته . ولا نعلم أن شاذًا من الشواذّ وشارداً من الشُرّاد ، فضلاً عن جيل من الأجيال ، أمر بالحسد ، كما قد قيل : عادِ مَن عاداك ، وقارع بالمداوة أهلها

ثم عظُم شأن العداوة عندهم وجلّ قدرها لديهم ، حتى اختلفوا فى سُبُلها ووجوه العمل فيها ، فمنهم مَن أمر بها على الحزم والعقل . وقال الشعبى لبشر بن مروان : لو وجهت إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزبير ، وكان شتمه ، مَن يأتيك به سَحباً وجَرًّا . فقال بشر : إنّى مستعمل فى عدوّى قول القائل :

وعادِ إذا عاديتَ بالحزم والنُهى ‌‌ تَنَلْ ظَفراً ممّن تريد وتغلب

فكان هذا ممن يرى المعاداة بالحزم ويغتالها بالعقل والتأنّى

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما سُتِر بالمداراة وأشفاها للأنفس ما قُرِع بمثلها باديا . وكان ينشد :

لا أتّقى حَسَكَ الضغائن بالرُقى ‌‌ فعلَ الذليل ولو بقيتُ وحيدا
لكن أعدُّ لها ضغائنَ مثلَها ‌‌ حتّى أداوىَ بالحقود حُقودا
كالخمر خيرُ دوائها منها بها ‌‌ تشفى السقيم وتبرئ المنجودا

فانتهى قوله إلى ابن شُبرمة فقال : لله درّ عروةَ هذه أنفسُ العرب . فهؤلاء رأوا كشفَ المعاداة ولم يروا التأنّى

ومنهم مَن رأى المعاداة بعد الفِرار منها والإعذار فيها ، فإن هى أبت إلاّ المقارنة قارنوها بمثلها . قال شبيب بن شيبة : إذا رأيت الشرّ قد أقبل

---

(١٠) كذا ؟

إليك فتطامن له حتى يتخطاك ، ولا تهجه ولا تبحث عنه ، فإن أبى إلاّ أن ينزل عليك فكن من الأرض ناراً ساطعةً تتلقى . وأنشد :

إذا عاداك مُحتَنِكٌ لبيب   فعادِ النومَ واحترس البياتا
ولا تثر الرَّبُوض وخلِّ عنها   وإن ثارت فكن شبحاً مواتا
تحول إلى سواك ونحّ عنها   نخير الشرّ أسرعه فواتا
وإن مالت عليك وخفت منها   فواجهها مجاهرةً صلاتا

ومنهم مَن أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عُبيد الله بن عبد الله ابن مسعود : إن الملامات والمذمّات كلها قبيحة ، وأقبح الملامة والمذمّة ما كانتا فى ترك نصفةٍ أو شدّة منافسةٍ فى تعداد الذنوب . وأنشأ يقول :

منافسة العدوّ أو الصديق   تجرُّ إلى المذمّة والملامه
إذا أعطاك نصفاً ذو ودادٍ   وبعض النصف فانتهز السلامه

ومنهم من قال : لا ترض من عدوّك إلاّ بالظلم ، ولا تقبل إنصافه ونافسه . من ذلك قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النصف منهم   ولو أنصفوا حتى تعق وتظلما

ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدوّ إذا حمل عليه . قال : حدثنى إبراهيم بن شعبة المخزومى ، قال : سمعت مَن حكى لى عن مصعب بن الزبير قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمت عدوّك فبادره برجلك ، فإن سلم من الدهر لم يسلم منك . وأنشد :

إذا برك الزمان على عدوّ   بكلكله أعنتُ له الزمانا

---

(٢) ساطعا ↄ — (٥) تحول . صححنا : تجزل ↄ — عنها ، صححنا : عليها ↄ

قال العتابى : قلت ¹لطوق بن مالك : إن من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السلب ، فإذا حملت الأيام على عدوك ثقلا وأمكنتك منه ، فزده ثقلاً إلى ثقله . قال : فقال لى طوق : من لم ينتهز من عدوه انتهز منه ، وحالت الأيام التى كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

لله درك ما ظننت بثائرٍ حرّانَ ليس على التراب براقد
أحقدتَه ثم اضطجعت ولم ينم أسفاً عليك وكيف نوم الحاقد
إن تمكنِ الأيامُ منك وعلّها يوماً توفك بالصُّواع الزائد
ولئن سلمتَ لأتركنّك عارضاً بعدى لكل مسالمٍ ومعاند

ومنهم من كان يرى جبرَ كسرِ العدوّ وإقالةَ عثرته ونصرتَه عند نوب الدهر عليه . قال : حدثنى ابنُ عبد الحميد ، قال ابن شبرمة : كانت الحربُ يومَ صفّين بين العرب محضةً لا شَوْبَ فيها ، فكانت محاربتُهم ²كرًّا واعتناقاً ، وكانوا إذا مرّوا برجل جريح كانوا يقولون : خذله قومه فانصروه وألقاه دهره بمضيعة فردّوه إلى أهله

وقال ابن شبرمة : ما زلنا نسمع أنّ المصيباتِ تنزع السجيات . قال : وأنشدنى بعض أهل العلم فى هذا المعنى :

فلو بى بدأتُم قبلَ من قد دعوتُم لفرّجتُها وحدى ولو بلغت جهدى
إذا المرء ذو القربى وذو الجند أجحفتْ به سَنةٌ سلّت مصيبته جعدى

ومنهم مَن رأى الإفضال على عدوه وتركَ مجازاته ، وهذا كثير لا يحتاج فيه إلى استقصاء شواهده

---

(١) على الهامش ، وفى المتن : لمالك بن طوق — (١١) كرا ، صححنا : كراما

قال غيلان بن خرشنة الضبى ، وقال بعضهم بل الأحنف بن قيس : لا يزالُ العربُ بخير ما لبست العمائم وتقلّدت السيوف وركبت الخيل ولم تأخذها حميّـة الأوغاد . قيل : وما حميّـةُ الأوغاد ؟ قال : أن يرَوا الحلمَ ذلاًّ والتواهب ضيما

وقال الشـعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان ؟ فقد عاداك ونَصَب لك . فقال :

ليست الأحلامُ فى حال الرضا إنما الأحلام فى حال الغضب

وأنشدنى بعض العلماء بيتين ، وقال : إن الزهرى كان كثيراً ما يتمثل بهما :

وإنى لأعدائى على المقت والقلى بنى العم منهم كاشح ⁽⁷⁾وحسود
أذُبُّ وأرمى بالحصا من ورائهم وأبدأ بالُحسـنى لهم وأعود

وكان عبد الله بن مَرْوان إذا أنشد :

إنى وإن كان ابنُ عمى كاشحاً لمراجمٌ من دونه وورائه
ومُعيرُه نصرى وإن كان امرءًا متزحزحا فى أرضـــه وسمائه
وإن اكتسى ثوبا نسيساً لم أقل يا ليت أنّ علىّ حسنَ ردائه
وإذا تخرّق فى غنــاه وفرته وإذا تصعلك كنت من قرنائه

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم والانتقام عند الإمكان والمسألة عند الحاجة

ومنهم من أمر بالسـفه فى العداوة ، واستعمال الخرق فيها . حدثنى نوح ابن أحمد ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن ابن عباس ، قال : جاء النابغة الجعدى

---

(٧) كذا على الهامش ، وفى المتن : وصديق

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفى الله عنه ؟ قال : نعم ، قال : أنشدنى منه ، فأنشده :

وإنّا لقوم ما نعوِّد خيلنا إذا ما التقينا أن تحيدَ وتنفرا
وتنكر يوم الروع ألوان خيلنا من الطعن حتى يحسب الجون أشقرا
وليس بمعروفٍ لنا أن نردها صِحاحا ولا مستنكراً أن تُعقّرا
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنّا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى الجنة إن شاء الله . ثم رجع فى قصيدته فقال :

ولا خير فى جهلٍ إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا
ولا خير فى حلمٍ إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يُكدَّرا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا فضّ الله فاك . فأتت عليه عشرون ومائة سنة ، كلما سقطت له سن أثغرت أخرى مكانها ، لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذا أحسن ما روى فى البادرة التى يُصان بها الحلم

وقال الشاعر الجاهلىّ :

صفحنا عن بنى ذهل وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعـ ـن حياً كالذى كانوا
فلما صرح الشرُّ وأمسى وهو عريان
مشينا مشية الليث بدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين وتضجيع وإذعان
وطعنٍ كفم الزقّ وها والزق ملآن

وفى الشرِّ نجاة حيـ   ـن لا ينجيك إحسان

حدثنا أبو مسهر ، عن أبيـه ، عن خالد بن عمرو الكلبى ، قال : كنا مع أبى برزة الأسلمى فى غزاة ، فكان منّا رجل يمتار لنا الميرة ويقوم بحوائجنا ، فإذا أقبل قلنا : جزاك الله خيراً ، فغضب لدعائنا ، فشكونا ذلك إلى أبى برزة ، فقال أبو برزة : كنا نسـمع أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ، فاقلبوا له . فكنا نقول له إذا أتانا بالحوائج : جزاك الله شراً وعسراً ، فيضحك لذلك

وأنشدنى رجل عن بعض الأعراب :

أرى الحلم فى بعض المواطن ذلّة   وفى بعضهـا عزاً يشرّف فاعله
إذا أنت لم تدفع بحلمك جاهلا   سفيهاً ولم تَقرن به من يجاهله
لبستَ له ثوب المذلة صاغراً   فأصبح قد أودى بحقك باطله
فأبق على جهـال قومك إنه   لكل حكيم موطن هو جاهله

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : استوصوا بالغوغاء خيراً ، فإنهم يطفئون الحريق ويسدّون البثوق

وقال أبو سلمى فى الجاهلية :

لا بد للسؤدد من رماح   ومن عداء يُتّقى بالراح
ومن كلابٍ جمة النباح

وقال مسلم بن الوليد :

حلفت لئن لم تكفنى سفهاءها   خزاعة والحيّان عوف وأسلم
لأرتجعن الوُدّ بينى وبينهـــا   بقافيـة تفرى العروق فتحسم
من اللاء لا يرجعن إلآ شوارداً   لهنّ بأفواه الرجال تهمهـــم
أصابوا حليما فاستعدّوا بجاهل   إذا الحلم لم يمنعك فالجهل أحزم

ولم نستقص الأبواب كلها المعارضة فى هذا الكتاب ، ولو استقصينا لطالت بنا الأيام وتراخت الليالى ، إلى بلوغ الغاية فى تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عرضَ ما دل على معناه الذى إليه قصد

ولم نر الحسد أمرَ به أحد من العرب والعجم فى حالٍ من الأحوال ، ولا ندب إليه ونبّه عليه . وقد نُبِّه على العداوة ، وفُصل بين أحوالها بما قد بيّناه ، فظهر فضلها على الحسد بذلك

وكنتُ امرءاً قليل الحُسّاد ، حتى اعتصمت بعروتك واستمسكت بحبلك واستذرأت فى ظلّك ، فتراكم علىّ الحُسّاد وازدحموا ، ورمونى بسهامهم من كل أوْبٍ وأفقٍ ، وتتابعوا علىّ تتابُعَ الدَبْرِ على مشتار العسَل . والئن كثروا لقد كثر بهبوب ريحك إخوانى ، وبنَضرة أيامك وزهرة دولتك خُلاّنى . وأنا كما قلت :

فأكثرتَ حُسّادى وأكثرتَ خُلّتى وكنتُ وحُسّادى قليلٌ وخُلاّنى

فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب ، دخل علىّ عشرة نفرٍ من الكُتّاب ، قد شملهم معروفك ورفع مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك . وجزيل فوائدك . فأفاضوا فى حديث من أحاديث الحسد ، فشعّب لهم ذلك الحديث شعوبا افتنّوا فيها ، والحديث ذو شجون . فما برحوا حتى أتتنى رُقعة أناسيّة من الحُسّاد ، فيها سهام الوعيد ومقدّمات التهديد والتحذير والتخويف للطعن على ما أُؤلّف من الكتب ، إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يجرى علىّ . فدفعت رقعتهم إلى

(١٨) الف ظ

مَن قرب إلىّ منهم ، فقرأها ثم قال : قاتلهم الله أبظُلمٍ يرومون النَّيل ويلتمسون الشركة فى المعروف . لنَزْعُ الروح بالكلاليب أهون من بذل معروفٍ بترهيبٍ . وأنشأ يقول :

أما الحوادث من خليـ ـلك مثل جندلة المراجم
قد رامنى الأعداء قبـ ـلك فامتنعت من المظالم

ودفعها إلى مَن قرب منـه فقرأها ، وقال الثانى : صكة جلمود لكل مُرعِد حسود يستمطر العُرف بالتهديد ، خَلِّ الوعيد يذهب فى البيد . وأنشأ يقول :

أبرق وأرعد يا يزيـ ـد فما وعيدك لى بضائر

ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال : سألوا ظلماً وخوّفوا هضماً ، لقوا حرباً ولقيت سلماً . وأنشأ يقول :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : قول الذليل وبوله سِيّانِ . وأنشأ يقول :

ما ضَرّ تغلب وائل أهجوتها أم بُلت حيث تناطح البحران

ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : نهيق الحمار ودم الأعيار ، جُبَار جُبار . وأنشأ يقول :

ما أبالى أنبّ بالحزن تيس أم لحانى بظهر غيب لئيم

ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : إذا علقتك الأمجاد فليهن عليك الحُسّاد . وأنشأ يقول :

إذا أهل الكرامة أكرمونى فلا أخشى الهوان من اللئام

ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : كيف يخاف الصرعة مَن هو فى ذى المنعة . وأنشأ يقول :

كم تنبحون وما يغـــنى نباحكم   ما يملك الكلبُ غير النبح من ضرر

ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال : تَوَكى هَلكى ، لم يعرفوا خبرك ولا دروا أمرك . وأنشأ يقول :

فلو علم الـكلاب بنو الـكلاب   بحالك عنـــد سيّدنا لذلّوا

وعندى صديق لى من السوقة له أدب ، فقال لى بعقب فراغهم مُسِرًّا : إنّ هؤلاء الـكتاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحسّـاد ، وضربوا الأمثال فى هوانهم عليك ، وعرفوا أنك فى منعةٍ من عِزّ أبى الحسن — أطال الله بقاءه — ومعقل لا يُسامَى ولا ينال ، وأنا أقول بالشفقة :

تَوَقَّ قوماً من الحُسّاد قد قصدوا   لحطّ قدرك فى سِرٍّ وفى عَلَنِ

فقلت له : إنى أقول بيتين هما جوابك وجواب الحُسّاد :

إنّ ابن يحيى عبيـــد الله أمّننى   من الحوادث بعد الخوف من زمنى
فلست أحذر حُسّادى و إن كثروا   ما دُمتُ مُمسكَ حبل من أبى الحسن

فلما رأى صديقى اقتفائى آثار الـكُتّاب ، باستهانتى بالحسّـاد عند اعتلاقى حبائلك — أعزك الله — أنشأ متمثلا يقول بشعر نصر بن سيّار :

إنّى نشأت وحُسّادى ذوو عددٍ   يا ذا المعارج لا تنقص لهم عددا
إن يحسدونى على ما قد بنيت لهم   فمثل حسن بلائى جرّ لى الحسدا

وليس العجب أن يكثروا ، وأنا أنعق بمحاسنك وأهتف بشكرك ، ولـكن العجب كيف لا تتفقت أكبادهم كمداً . وكان بعضهم يقول : اللهم كثّر حُسّاد

(١٥) للحساد ن — (١٦) كذا فى ش ، ولعلها مقحمة

ولدى ، فإنهم لا يكثرون إلاّ بكثرة النعمة . فإن كان والدى سبق منه هـذا الدعاء ، فإنّ الإجابة كانت مخبوءة إلى زمان عزك ، فقد رأينا تباشيرها وبدت لنا عند عنايتك غايتها

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعـل ولدى محسودين ولا تجعلهم مرحومين ، فإنّ يوم المحسود يوم عزّه ويوم الحاسد يوم ذلّه

ويقال إنه لمـا مات الحجاج سمعوا جاريةً خلف جنازته وهى تقول :

اليوم يرحمنا مَن كان يحسدنا   واليوم نتبع مَن كانوا لنا تبعا

ويقال إن زياد بن أبيه قال لحُرقة ابنـة النعمان : أخبريني بحالكم ، قالت : إن شئتَ أجملتُ وإن شئتَ فسرت ، فقال لها : أجملى ، فقالت : بتنا نُحسَد وأصبحنا نُرحم . فخطبها زياد — وكانت فى ديرلها — فكشفت عن رأسهـا ، فإذا رأس محلوق ، فقالت : أرأس عروس كما ترى يا زياد ؟ وأعطاها دنانير فأخذتها وقالت : جزتك يد افتقرت بعد غنًى ، ولا جزتك يد استغنت بعد فقر

ولا نعلم الحسد جاء فيـه شىء أكثر من حديثٍ رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلاّ فى اثنين ، رجل أتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به آناء الليـل وآناء النهار ، ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه فى وجوه البر آناء الليل وآناء النهار . فهذا الحسـد إنما هو فى طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم

---

(٥) كذا فى ن ، ولعلها : المرحوم

وقال بعض الأشراف :

احسُد على نيل المكارم والعُلاَ   إذ لم تكن فى حالة المحسود
حسد الفتى فى المكرمات لغيره   كرم ولكن ليس بالمعدود

فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد . وزادك الله شرفا وفضلا وعلماً ومعرفة ، ولا زلت بالمكان الذى يُهدى إليك الكتب ، ويُتحف بنوادر العلوم وفرائد الآداب إنه قريب مجيب⁽⁶⁾

---

(٦) تم الكتاب ولله المنة وبيده الحول والقوة ۞

فهرس الرسائل

التى يحويها هذا المجموع

صفحة

١ — رسالة المعاد والمعاش ٩

٢ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ٣٧

٣ — رسالة فى الجد والهزل ٦١

٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد... ... ... ٩٩

تصحيحات

ص ٣٨ : وردت القطعة « وقيل من استوى » (سطر ١) إلى آخر سطر ٩ في نسخة س أيضا وفيها رواية أخرى للأبيات المذكورة في سطر ٤-٥ :

رأيتك أمسِ سُدْتَ بني مَعَدٍّ ......

وأنت غــداً تزيد الضعف منــه ......

أما بقية التصحيحات التي نقترحها فهي :

صفحة	خطأ	صواب
٣٨ : ٨	تحي به	تُحيّى له (كذا ب)
٣٩ : ٥	بقدرة الله	بقدرة لله
٤١ : ١٢	الأشاقيّ	الأشاقي
٤٣ : ٩	الحدثَ	الحدثُ
٤٣ : ١٨	لم يُخرجه	لم يخرجه
٥١ : ١٨	الطعنَ ... والتجسسَ	الطعنِ والتجسسِ
٥١ : ١٨	وعشقَ	وعشقُ
٥١ : ١٨	واستحلالَ	واستحلالُ
٥١ : ١٨	ظاهراً	ظاهرٍ ؟
٥٦ : ٨	كُفُؤه	كفئه
٦٠ : ١	فكأنّ العارضَ	فكان العارضُ
٦٠ : ١٠	والآخذِ	والآخذُ
٦٠ : ١١	< منه > لمن	ممن
٦٥ : ٢	الملاظ	الغلاظ
٦٥ : ٥	القظائع	القطائع ؟
٦٧ : ١٣	غرمُه	غرمه
٦٨ : ٤	اكترائه	اكترائك ؟
٧١ : ٧	ويمذره	ويعذره
٧٢ : ٥	الاعتزام	الاعترام ؟
٧٥ : ١٥	يُومى	يومى
٧٦ : ٤	سكينه	سكينته ؟
٨٠ : ١٧	لتعرُض	لتعرض
٩٠ : ٥	بدلك	بذلك
٩١ : ٨	واصابة	واصالة
٩١ : ١٨	والتهاية	والنهاية
٩١ : ١٨	المسكنة	المُسْتَكِنّة
٩٢ : ١٠	وتباعدُ	وتباعُدِ
٩٧ : ١	اخفى	أخطى
٩٧ : ٦	والضبِ	والضَّبُّ